اسطورة الأدب الرفيع

الدكتور علي الوردي

اسطورة الأدب الرفيع

د. علي الوردي

منشورات سعيد بن جبير / قم المقدّسة / هاتف ٧٧٣٥٤٦
الطبعة الأولى / ٢٠٠٠
٢٠٠٥ م ـ ١٤٢٦ هـ
ISBN: 964 - 8793 - 14 - X

الإهداء

اهدي كتابي هذا إلى اولئك الأدباء الذين يخاطبون بأدبهم أهل العصور الذهبية الماضية، عسى أن يحفزهم الكتاب على أن يهتموا قليلاً بأهل هذا العصر الذي يعيشون فيه، ويخاطبوهم بما يفهمون. فلقد ذهب عهد الذهب، واستعاض عنه الناس بالحديد!

مقدمة

إن هذا الكتاب الذي بين يدي القارىء ليس كتاباً بالمعنى الدقيق، إنما هو مجموعة من المقالات كتبتها في مناقشة الدكتور عبد الرزاق محي الدين، استاذ الأدب العربي في دار المعلمين العالية. وقد حاولت في اول الأمر نشرها في إحدى الجرائد المحلية، ولكن الجريدة استصعبت نشرها تباعا يوماً بعد يوم، فاضطررت من جراء ذلك إلى نشرها في هذا الكتاب.

ولهذه المقالات قصة يجدر بالقارىء معرفتها، إن لم يكن عارفاً بها من قبل. وقد بدات القصة منذ بضعة اشهر حيث كنت قد نشرت في جريدة الحرية بعض المقالات نعيت فيها على الأدباء تمسكهم بالتقاليد الأدبية القديمة وقلة اهتمامهم بما يحدث في هذا العصر من إنقلاب اجتماعي وفكري عظيم. فهبّ الأدباء من جراء ذلك هبة واحدة، واخذوا ينتقدونني ويتهجمون، ويصولون ويجولون. فلم اجد بداً من الردّ عليهم من مناقشة الآراء التي جاءوا بها.

ولا يسعني هنا ان أعيد نشر ما قلت وما قالوا. فذلك امر يطول ويتشعب. ولست ادري ماذا ابقي منه وما اذر. ولسوف اقتصر في هذا الكتاب على إعادة نشر مقالات الدكتور محي الدين وحدها، تلك التي نشرها في جريدة البلاد وكان لها صدى بين القراء لا يستهان به.

ومقالات الدكتور هذه، والحق يقال، من خير ما كتب في الموضوع. فهي تمثل وجهة نظر جديرة بالدرس والعناية. واحسبها لاتخلو من اصالة. وقد رايت من المجدي ان يطلع القارىء عليها كاملة قبل ان يباشر بقراءة مقالاتي التي جاءت

بعدها. ولعل القارىء سيجد في هذا الإختلاف بين وجهتي النظر سبيلاً الى إستيعاب الموضوع والتعمق فيه.

وارجو ان يعلم القارىء قبل كل شيء اني لم اقصد بهذا الكتاب مغالبة الدكتور محي الدين او مبارزته. فليس يهمني أن اغلبه او يغلبني. ورب غلبة حاضرة تؤدي الى هزيمة منكرة في نهاية المطاف.

سوف اطرح آرائي الى جانب آرائه، ثم اتركها للزمان ليحكم لها او عليها. والزمان غربال جبار يبقى فيه ما ينفع الناس، ويختفي منه الزبد والحثالة.

* * *

سيلاحظ القارىء اني أسهبت في آرائي وتبسطت فيها. ولعلني ذهبت فيها مذهب من يريد التفهيم والتوضيح لا مذهب من يريد الغلبة في الجدال. وهذا هو ديدني في كل كتاب اخرجه للناس. فانا واثق بان الذي اريد مجادلته لا يقتنع بما اقول ولو جئت له بالشمس في رابعة النهار، كما هو شان الإنسان في كل زمان ومكان. ولهذا فإني ساهتم بالقارىء اكثر مما اهتم بالمجادلة، ولسوف اعنى بتبسيط الرأي اكثر مما اعنى بتزويق بيانه وزخرفة الفاظه.

وارجو المعذرة من صديقي محي الدين حيث اتخذت من مناقشة آرائه وسيلة للإستطراد، ولعلني ابحث من وراء ذلك في آراء بعيدة كل البعد عن آرائه. واشعر بان هذا الأمر ضروري بالنسبة لي. فلو قصرت كتابي هذا على مناقشة آرائه وحدها لكان املي في رواج الكتاب ضعيفاً.

فالقارىء الحديث مشغول بهموم يومه، ولا يبالي ان يشهد مناقشة بين إثنين لا مصلحة له فيها. وهو يقرا الكتاب لكي ينتفع منه او يتلذذ به. وإني لأدرك هذا فيه، ولهذا تراني اسعى في كتبي لكي انال رضاه واعطيه المنفعة واللذة قدر المستطاع.

إني تاجر، ولا بأس عليّ في ذلك، هناك فرق كبير بين التاجر الأمين والتاجر الغشّاش الذي يبيع الناس اغلفة براقة لا تحتوي في داخلها على شيء مفيد.

* * *

وصفني احد الأدباء في العام الماضي باني تاجر، وظن انه وصمني بذلك وصمة لا

خلاص لي منها، حيث ستسير بها الركبان في كل مكان ، ويتحدث عنها الرواة، كما كانوا يفعلون بشتائم جرير والفرزدق.

هو لا يدري بان الزمان قد تغير، واني افتخر بان اكون في كتبي تاجراً، إذ لا استحي ان اكون كصانع الأحذية وبائع البطيخ اقدم للناس ما يرغبون به او ينتفعون.

عجيب امر هذا الرجل وامر امثاله من ادباء السلاطين. فهم يمجّدون الشعر الذي يتزلف إلى المترفين ويقتات على فضلات موائدهم، وهم قد يعتبرونه صاحب رسالة فنية ومصباحاً من مصابيح المعرفة. اما الذي يقترب إلى الجمهور بفنه ويكتب له ما يريد فهو في نظرهم تاجر لا خير فيه.

* * *

كان الشعراء قديماً يتقدمون بين يدي السلطان فيلقون القصيدة العصماء يصفونه فيها بانه افضل الخلق طراً وخير من ركب المطايا. وهم يأملون من وراء ذلك بالجائزة الدسمة او الجارية الدعجاء...

إنهم شحاذون ويدّعون بأنهم ينطقون بالحق الذي لا مراء فيه والويل لمن يجرا على مصارحتهم بالحقيقة المرة او تكذيبهم فيما يقولون. فهم إنما يذكرون فضائل السلطان عزّ نصره. وهل هناك في الدنيا من يشك في فضل السلطان او انه ظل الله في أرضه.

اعتاد الشعراء على ذلك جيلاً بعد جيل حتى صاروا يغالطون انفسهم ويتظاهرون بانهم رواد الحق والحقيقة وأنهم شموع تحترق.

اخرج احد الأدباء من مدة قصيرة كتاباً عن ابي نواس قال فيه: "وابو نواس واحد من هؤلاء القلائل الذين يتمخّض بهم الزمن بين فترات جد متباعدة، فيملأون اذن الدهر ويكونون الكلمة الخالدة على لسانه. تحفظ الإنسانية ذكره، حفية به، حريصة عليه، عانية لجلاله وجبروته. ولو لم يكن أبو نواس واحداً من هؤلاء الذين يملأون سمع الدهر لما احتفظ التاريخ باسمه ثلاثة عشر قرناً او تزيد، واغلب الظن انه مالىء سمع الدهر برنينه الباهر قروناً جد كثار مقبلات. ومع هذا الكبر، كان ابو نواس واحداً من هؤلاء الخالدين الذين يلمون بالأرض إلمامة قصيرة

ولكنها عريضة ضخمة ثم يرتحلون عنها وقد تركوا من ورائهم ميسم الخلود على جبين الارض، وزرعوا طريقاً للخلف خصبة ممرعة تمر بها الأجيال من بعدهم فتختلف فيها وتحترب على فهمها وسوغها... " .

انظر ياأخي القارىء إلى هؤلاء الأدباء. فليس يكفيهم أن يدرسوا ابا نواس من الناحية الفنية، ويتعلموا منه حسن البيان، إنما يريدون فوق ذلك ان يجعلوه رسولاً يسنُّ للخلق طريق الهدى والرشاد.

ولا عجب ان يمتعض الأدباء من وصمة التجارة. إنهم يتركون ميسم الخلود على جبين الأرض كما يزعمون، ولهذا فهم اجّل وارفع من البقال او الصانع الذي يكسب رزقه بعرق جبينه ثم يموت ويموت ذكره معه.

* * *

وهناك سبب آخر جعل الأدباء يحتقرون مهنة التجارة، هو انهم عاشوا في احضان الأمراء فاقتبسوا منهم قيمهم الإجتماعية. فالأمير بوجه عام يكره ان يكون كالصعاليك عاملاً كادحاً يكسب رزقه بعرق جبينه. إنه يحتقر الصعاليك ويحتقر الطريقة التي يكسبون بها. وقد حذى الأدباء حذو اسيادهم في ذلك طبعاً.

ان الأمير فاتح او هو من ابناء الفاتحين. فهو يجبي المال بحد السيف. ولا خير في مال ياتيه عن طريق الإنتاج ومبادلة المنافع. إنه ذو نزعة استحواذية كما قال البروفسور فبلن. ومن هنا جاء احتقار المترفين وحاشيتهم لكل تاجر او عامل او صاحب حانوت.

ومما يجدر ذكره في هذه المناسبة ان الحضارة الجديدة تقوم على اساس غير هذا. فقد أصبح العمل والتجارة رمز الحياة فيها. فالذي لا يعمل لايعيش، وكل انسان يسعى نحو إنتاج شيء مادي او معنوي فيقدمه للناس لكي يحصل من ورائه على مايعيش به.

* * *

والغريب ان نجد ادباءنا يحتقرون التجارة بينما كان الإسلام يحترمها ويعتبرها اساساً للدين والإيمان. يقول القرآن: " ياأيها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة

ونعيمكم من عذاب اليم." ويقول، "إن الذين يتلون الكتاب واقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور." ويقول، "إن الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقتِلون ويُقتَلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن اوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك الفوز العظيم."

فالمسالة تجارية إذن. والمؤمن يقدم نفسه وماله بين يدي الله على سبيل المقايضة، والله سيرُد له ما قدّم ويضيف عليه ارباحاً مضاعفة. والظاهر ان المسلمين في عهودهم المتاخرة لم يفهموا كنه هذه التجارة الربانية. فقد صاروا كالشعراء يؤثرون الإستجداء من ربهم بدلاً من المتاجرة معه. ولهذا اخذوا يطمعون بالحصول على الجنة عن طريق الدعاء والعبادة، لا عن طريق العمل والإنفاق. إنهم يحسبون ربهم كالسلطان الذي يتزلف إليه الشعراء بقصائدهم الرنانة. ونسوا ان الله اجَل من أن يطربه المدح او يستمليه النفاق.

* * *

مهما يكن الحال، فقد بطلت في هذا الزمن طريقة الإستجداء لكسب العيش، وبطلت كذلك طريقة الإستحواذ بحد السيف. إنما بقيت طريقة واحدة هي أن تنتج لتستبدل إنتاجك بإنتاج غيرك. وقد نجد الآن في بعض زوايا الأرض من لا يزالون يعيشون على الشحاذة. إنهم من بقايا الزمان البائد. ولسوف يأتيهم يوم يسحقهم فيه المجتمع باقدامه ويجعلهم اضحوكة الناس.

رايت ذات يوم تاجراً يبيع السجاد في إحدى المدن الغربية. وكان ناجحاً في تجارته إلى ابعد الحدود. فسألته عن سبب نجاحه فاجاب: "إني لا أبيع السجاد لأحد إلاّ بعد ان ابيعها لنفسي." وكان يقصد من ذلك انه لا يحب للمشتري إلاّ ما يحب هو لنفسه. ولهذا وثق الناس به واقبلوا عليه من حيث تركوا غيره من التجار الذين يحبون لغيرهم مالا يحبون لأنفسهم.

وهذا لعمري شعار ينبغي ان يضعه كل ذي عمل نصب عينيه. إنه شعار يصلح لبائع السجاد كما يصلح لناشر الأفكار. فكلاهما ينال جزاءه بمقدار ما ينتفع

الناس من عمله. ولا مكان في هذا الزمان لتاجر يتكبر على الناس ويقدم لهم ما لا يرغبون فيه.

والمؤسف ان نجد بعض ادبائنا لا يريدون ان يفهموا هذه الحقيقة. إنهم لا يزالون يفضلون الشحاذة على التجارة. فلا باس عندهم ان يتقدم الأديب إلى احد السلاطين الأدنياء او إلى شيخ من شيوخ الإقطاع، فينشد بين يديه قصيدة عصماء او يكتب في فضائله كتاباً.

اعرف اديباً من هذا الطراز كان ياتي إلى العراق بين حين وآخر، فيلتقط احد رقعاء الأغنياء، ويظل يتغنج عليه بأدبه المزخرف. والغني الرقيع يقدّم له مالذ وطاب من الخام والطعام. وقد عجبت لمّا رايت هذا الأديب محترماً يقابله الادباء بالترحاب ويقيمون له الولائم والحفلات.

إنهم يمجدُّون مثل هذا الاديب في الوقت الذي يمقتون فيه من يبيع افكاره على الجمهور.

لا لوم على الأدباء القدامى حين كانوا يتبعون طريق الإستجداء في ترويج ادبهم، فهم لم يكونوا يجدون لهم سوى هذا الطريق. ولكن اللوم يقع على اصحابنا الذين فتحت الطباعة بين ايديهم طرقاً شتى، بينما هم لا يزالون يجرون على نمط اسلافهم الماضين.

يصدر بعض اصحابنا مجلات ادبية فيملأونها بتمجيد فلان او فلان من الشعراء القدامى. ثم تموت مجلاتهم تباعاً. فيأخذون بالبكاء على "مصير الأدب الرفيع في هذا الزمان، ويصبون الرحمات على تلك العصور الذهبية التي كان الأديب فيها مكرماً معززاً.

إنهم يريدون من القارىء ان يكدح طوال يومه ليشتري ما يكتبون او يتحذلقون. فإذا وجدوه يفضل شراء مجلات السيقان العارية على شراء مجلاتهم، انحوا عليه باللائمة وامطروا عليه الويل والثبور. وما دروا انهم اولى باللائمة منه.

وليت شعري هل كان الشعراء القدامى الذين يمجدهم اصحابنا وينسبون إليهم العبقرية افضل او ازكى خلقاً من أصحاب المجلات الخليعة. ولو فرضنا ان ابا نواس

بعث حياً في عصرنا هذا ثم اصدر مجلة ادبية، فماذا تراه صانعاً بها؟ ارجح الظن انه سيملؤها بصور الأرداف بدلاً من صور السيقان...

ولا احسب ان جريراً او الفرزدق سيفعلان خيراً من ابي نواس في ذلك. فانهما ستمتلىء بالشتم البذىء وصور العورات المكشوفة كما لا يخفى على القارىء اللبيب.

لست اريد بهذا ان ادافع عن المجلات الخليعة، إنما اريد ان ابين المفارقة المفضوحة التي يقع بها بعض ادبائنا حين يحتقرون الصور الخليعة، بينما هم يحترمون الشعر الخليع. وارجح الظن انهم يتمتعون برؤية تلك الصور سراً ثم يرفعون عقيرتهم بعدئذ لائمين حانقين.

المفروض في الأدباء ان يكونوا في الناس امّةً وسطاً، فلا يتزلفون الى المترفين، ولا يخاطبون غرائز المراهقين. إن لهم وظيفة في الحياة كبرى، وهم قادرون ان يقدموا الناس ما ينفعهم ويلذّ لهم في آن واحد. وتلك هي التجارة التي لا تبور.

* * *

واني إذ اقدم كتابي هذا بين يدي القارىء، أود ان يعلم باني لست من اولئك الذين يداهمون عليه بالأدب الرفيع ثم لا يقدّمون له سوى الألفاظ الرنانة، فلقد تعبت في تأليف هذا الكتاب كما تعبت في غيره، وسهرت فيه الليالي، وبحثت في المراجع من اجله كثيراً.

ولا انكر مع هذا انه مملوء بالعيوب، وفيه من التكرار والتطويل ما يبعث على السأم. ولكن هذا هو مبلغ جهدي، ولست بقادر على ان افعل غير ما فعلت...

وصف احد الادباء كتبي السابقة بانها كجبة الدرويش ليس فيها سوى الرقع. واظن انه سيصف كتابي هذا بمثل ذلك. ولست ارى في ذلك باساً. فخير لي ان اكون رقّاعاً اخدم الناس بالملابس المهلهلة، من اكون خياطاً ممتازاً اصنع الملابس المزركشة التي لا تلائم اجساد الناس ولا ينتفع بها احد.

مقالات

الدكتور محي الدين

المقالة الأولى

يثير الدكتور الفاضل علي الوردي بين آونة واخرى مشاكل ادبية مختلفة ينشرها في الصحف المحلية او يستطرد لها اثناء مؤلفاته في الإجتماع.

وليس من شك ان له فضلاً كبيراً في هذه الإثارة التي دفعت بجمهور من الناس الى القراءة وحملت شطراً كبيراً منهم على إعادة النظر فيما رسخ في ذهنه من عقائد، وفيما الِفه من عادات ومصطلحات، وساقت عدداً غير قليل من الكتاب والباحثين الى مراجعته ومنازلته في ميادين الصحف والمجلات.

* * *

الحركة بركة على كل حال والدفع بالعقول الى التفكير وبالألسنة الى التعبير، والاقلام الى الكتابة خدمة مُثلى ينبغي ان تقابل بالحمد والتقدير.

ولكن مشاكل الدكتور في الآونة الأخيرة انصبت بشكل حملات على الأدب والادباء واللغة واللغويين، وعلى تاريخ العرب والمسلمين، ونقد اغلب المخلّفات الاجتماعية، في إلحاح وحماسة شديدين. وفي تعميم قد يتجاوز به حدود القصد، وشمولية قد تزّج به فيما لا يحسن بمثله ان ينساق إليها، ما دام يريد لنفسه ويريد له صفة العالم المحقق، والدارس الذي يعنى ما يقول.

* * *

والذي يهمني من امر هذه الحملات، ومراجعته فيه، هذا الذي يتصل بالأدب واهله، واللغة وشؤونها، وفي بعض خصائص الأمة العربية الإسلامية.

ويمكن تلخيص ماانطبع بذهني من مقالاته بما سيأتي:

ا – دعوته إلى تيسير لغة الكتابة وتسهيلها، واقتراح بعض الحلول.

2 – وصمه ادباء العربية وشعرائهم خاصة بالسير في ركاب الظالمين، والتغني بمدائح العتاة المتجبرين واتهام الشعر بالظهور مظهر الشذوذ الجنسي، ثم الدعوة الى رفض هذا الأدب بجملته، وتزهيد شأنه وتحقيره في عيون الناس.

3 – عرض صور من تاريخنا دون اخرى، والتعقيب عليها بما يحمل على تشويهه بجملته.

* * *

ففيما يتصل بالدعوة الأولى، وهي التي تنادي بضرورة وضوح الكتابة وتبسيطها، وتقريبها من ذهن القارىء، نقول للدكتور الفاضل: هذه الدعوة ليست بدعاً جديداً تظهر به على الناس انت وحدك، ولا جيلك وحده؛ فليس لديك جديد تقوله للناس لتبلغ بك الحماسة والانتفاضة الى هذا الحد ولتبرر لك هذا الاندفاع المتكلف من وراء فكرة هي من ابجديات العربية.

إن كل من قرا كتب "البلاغة" وافتتح اولى صفحاتها واجه كلاماً يدعو الى الإفصاح والإبانة والظهور، وشهد تحديداً للكلام الفصيح بانه الخالي من غريب اللغة في مفرداته، والعاري من التعقيد في تراكيبه، الخالص من الإستكراه والثقل ومن كل ما يفوت على السامع والقارىء تيسير الفهم وسهولة الإدراك، وتقريب المعنى للذهن.

فهل في دعوى الدكتور شيء غير الذي قاله البلاغيون قبل الف عام؟ وهل لديه في امر المفردات أكثر من المطالبة بشيوع الكلمة ووضوح معناها، وصوغها على الهيئة المعروفة المتداولة؟

وهل عنده للتراكيب اكثر من جريها على المألوف الشائع في التراكيب العربية ومجاوزتها التعقيد عند ضم بعضها الى بعض مما يوجب غموض المعنى؟

* * *

كما أن من أبجديات البلاغة العربية ومن المأخوذ في صلب بلاغة الكلام أن يكون الكلام مطابقاً لإدراك السامع مناسباً لحالته، مسايراً لقابليته الثقافية، بحيث جعلوا لكل مقام مقالاً ولكل حال تعبيراً حتى وصلوا في مراعاة احوال القارئين والسامعين الى ان جعلوا من حق البلداء والجاهلين على ذوى الأقلام ان يكتبوا لهم

باللغة التي يفهمونها وبالأسلوب الذي يستجيبون له ويتاثرون به على شريطة سلامة التعبير.

فهل لدى الدكتور دعوة اوسع مدى في الإنصاف للجهلة الأميين من هذا الذي دعا إليه كتاب البلاغة العربية حين قدروا لمختلف الناس حظوظاً من البلاغة وحين راوا ان من مخالفات البلاغة ان تواجه الناس بما لا يدركون وان تخاطبهم بما لا يشعرون وبما لا يصل إلى نفوسهم ودقائق مشاعرهم.

فما الذي يدعو إليه الدكتور الوردي؟

ولم هذه الحماسة في التهجم على العبارات العربية؟

إني شهدت الدكتور في بعض مقالاته التي نشرتها له جريدة الحرية الغراء ينعي على الناس امر العناية "بالمعاني" و"البيان" و"البديع"، مازجاً بين هذه الفنون الثلاثة في عبارة واحدة.

فهل يعرف الدكتور الفاضل مؤديات هذه المفردات بالضبط والتحديد؟ وهل يدري ماذا تعني كل كلمة منها حتى يصح له الجمع بينها فضلاً عن التهجم عليها؟

احسب ان الدكتور اكثر إنصافاً من ان يستمر على جمعه بين هذه الفنون في التنديد بها، والنعي عليها حين يستقيم له معرفة مداليل هذه الكلمات.

إن "الدكتور الوردي" إذ ينكر اثر علم "المعاني" كمن ينكر اثر الهندسة في البناء فيدعو إلى الإستغناء عن فن الهندسة، بدعوى ان الإنسان حفر كهوفه قبل ان يعرف هذا العلم، وان النحل يبني خلاياه بمحض الفطرة.

إن علم "المعاني" هو الذي يتكفل بدراسة الظواهر التعبيرية عند الإنسان، تلك الظواهر التي تكشف عن كيفية بناء الأفكار في نفسه قبل ان تتقمصها الألفاظ، وهذا الإضطراب والإختلال اللذان يشهدان في بعض التراكيب التعبيرية صورة من صور الأفكار المضطربة في نفس الإنسان.

فليس الإستهانة بامر "علم المعاني" الا إستهانة بالضوابط الذهنية لدى

الإنسان. فهل يرضى الدكتور لنفسه ان يدعو إلى نبذ دراسة الضوابط الذهنية لدى ناقدي الآثار التعبيرية؟

يخيل إليّ ان كثيراً من الأحكام المرسلة في غير ضابط ما كانت ترسل هذا الإرسال لو صادفت دقة في التعبير بعد دقة التفكير.

* * *

وفيما يتصل بعلم البيان فما الذي ينعى الدكتور عليه. انه أيضاً دراسة للظواهر التعبيرية للإنسان حين يريد أن يعبر عن معنى من المعاني، فقد يسلك للمعنى سبيل الحقيقة او يسلك له سبيل المجاز على اختلاف انواعه، ولا توجد لغة في الدنيا، كان لها بعض مظاهر الرقي إلا وجدت فيها هذه الظواهر التعبيرية. وهذه اللهجات العامية من فروع العربية حافلة بانواع البيان. فبدراسة هذه الظواهر وقوف على مميزات اللغة وخصائصها ومعرفة الطرق التي تسلكها في بلوغ المعاني. فما الذي ينعي عليه الدكتور من امر هذه الدراسة؟.

لعله يخيل للدكتور الفاضل ان الأدباء إنما يعبرون عن المعنى بالطرق البيانية المختلفة لأنهم درسوا علم البيان، فخُيّل له ان في ترك دراسة علم البيان تركاً لأساليب البيان واستراحة من فنونه. وانا أؤكد للدكتور بأن كتاباته حافلة بأنواع البيان المختلفة، وانه لا خلاص لأي معبّر من اللجوء لبعض الظواهر التعبيرية، فالجهل بأصول البيان لا يعني التخلص من البيان ومن احابيله، فليطمئن الدكتور الى أنه واقع في المصيدة على كل حال، ولكن غفلته عن هذه الأحابيل التي تشد اطرافه خيلت له أنه حر يتصرف كما يريد، لذلك رايناه يدعو الى التحرر من معرفة البيان لا من البيان نفسه، فهو كمشدود بالقيد يدعو إلى التحرر من معرفة القيد، لا من اثقال القيد، ثم يهيب بالناس ويصرخ فيهم أن كانوا احراراً مثلي أيها المقيدون بالاغلال.

وكل الفرق بينه وبين عارفي "فن البيان" أنهم يسلكون إلى التعبير عن بيّنة ومعرفة، وهو يسلك إليه "عليك يا الله" .

أما الأمر في البديع فنعي الدكتور عليه موفق الى حد بعيد، ولكنه نعي سُبق إليه

من قديم الزمان، وحسبه ان يقرأ ما يشاء من كتب البلاغة ليشهد راي الناس فيه، وفي المقدار المقبول منه.

* * *

هذا شأن دعوة الدكتور ليس فيها جديد إلا الفضولية وعدم تحديد الهدف إن ارادها دعوة نظرية.

أما إن ارادها عملية للتطبيق، فنحن نسأله اين تجد الغموض والإبهام في الكتابات المعاصرة وهذه الجرائد العربية والمجلات والكتب الأدبية منذ خمسين عاماً تُحرَّر الموضوعات المختلفة فيها بلغة سهلة، وبعبارة واضحة، وبتراكيب ميسرة لم يشك احد فيها غموضاً او عسراً ولم تستعص على القارىء إذا كان متوسط الثقافة.

فهل يصح أن تثار هذه الدعوى العريضة للتيسير وسهولة التعبير، لأن كاتباً من بين مئات الكتّاب أو مقالة من بين الوف المقالات، يتكلّف صاحبها لغة غير معاصرة. واسلوباً غير مفهوم؟.

لعل الدكتور يريد بالتيسير: التسهل والترخص والبلوغ بالكلام حد العامية الدارجة حتى يعود في متناول من لم يحسن الفصحى في قليل أو كثير. وهذا ايضاً ليس براي جديد فقد شهد اوائل هذا القرن دعوة له في مصر واخرى في لبنان، وسورية، وانصار في العراق.

ولكن الدعوة وندت في مكانها، وأُجهز عليها بيد ابنائها لمّا انكشف لهم مساوئها واخطارها على ثقافة أبناء هذه اللهجات نفسها.

إن العالم العربي اليوم في طريقه إلى تناسي اللهجات العامية وإلى بلوغ لغة موحدة بين اقطاره بفضل إنتشار وسائل التعبير الموحدة وليس بعيداً ذلك اليوم الذي ستفهم فيه افكار الدكتور الوردي وأمثاله من المفكرين في جميع الأقطار العربية ومن اكثر سكانها، فليحافظوا على مستوى مقبول من التعبير.

* * *

ويطيب للدكتور أن يخلع على نفسه صفة الإصلاح والمصلحين للغة، فيخرج من

التعميم إلى التخصيص، ومن الشعور بضرورة الإصلاح إلى تحديد مكان الإصلاح وطريقته. فيلّم بإصلاح الإملاء العربي ويطالب بكتابة (اسم فاعل حكى) بالياء منقوطة دائماً خشية الإلتباس باسم فاعل حك فهو حاك بتشديد الكاف.

ولست أبغي أن أدخل معه في جزئيات المسألة لأني أخشى أن اثقل عليه وعلى القراء. ولكن أكتفي بالقول: إن صنيع الدكتور الفاضل لا يختلف عن صنيع من يقرأ كتاب الصحة للأحداث فيعالج بمعلوماته من يخيل إليه أنهم مرضى فيصف لهم ما يعُن له من عقاقير قد تجر عليهم الهلاك والموت. ثم يتركهم في غير مبالاة لرحمة الأقدار.

* * *

وأكتفى له بإجمال القول في المسألة:

إن الإملاء العربي لم يرتجل إرتجالاً، ولم يوضع إلا بعد تجارب أجيال، وهو في جملة جزيناته يخضع لفلسفة في الكتابة تقوم في الأغلب على أساسين:

أولهما: تجنب الخلط بين كتابة كلمة وأخرى، والتفريق ما أمكن بين الكلمات المتشابهة في النطق إذا كانت مختلفة في المعاني.

وثانيهما: التيسير وإسقاط الفضول والزوائد ما أمكن الإستغناء عنها. فكل ما بين أيدينا من قواعد الرسم مبني على هذا الأساس.

فهل يدري الدكتور الفاضل ماذا أرادوا حين قدروا حذف الياء والنقطتين من الاسم المنقوص إذا قالوا بحذفها مرة وإبقائها أخرى؟ إنهم يحذفونها في حالة وقوع الاسم مرفوعاً أو مجروراً لأنها لا تنطق ويبقونها في حالة النصب، أو في تعريف الاسم المنقوص بـ "ال" لأنها تنطق.

أما إلتباسها بـ (حاك) اسم فاعل (حك) فامر من الرافة بالدكتور عدم التعليق عليه.

* * *

ياحضرة الأخ الكريم إن القضايا العلمية لا تعالج بمثل هذه السذاجة. وبهذه

الروح اللاابالية، ولو كان الأمر كما تظن لاستغنى الناس بك وبأمثالك عن إنشاء المجامع اللغوية ولما أطالوا النظر وقلبُوا الوجوه في شؤون الإصلاح لهذه اللغة.

إنك كإنسان تحس بالحاجة الى تيسير الإملاء يصح له المطالبة بالإصلاح وعرض الشكوى على المختصين ورجال المجامع.

اما ان تقترح نوع الإصلاح وتحدد أدواته ووسائله في الصحف اليومية فذلك تصرف لا يقّره ويستسيغه إلا أولئك الذين يسُرهم ان يشهدوا تهريج المهرجين في الطرقات بدل ان يشهدوه في دور التمثيل والتهريج.

ونحن نربأ بالدكتور ان يقبل هذا للناس الباحثين.

المقالة الثانية

الوردي وحديث الشعر:

يتحدث الدكتور "الوردي" عن الشعر بجراة وصرامة شان المتمكن من مادته،الواقف على فنون هذه الصناعة المعقدة، فلا يتهيب ان يطلق عليها ماشاء من احكام، ويصفها بما أراد من صفات، كانه احد ابنائها الأفذاذ الذين يملكون وسيلة النقد، ومعايير التقدير.

والذي نعرفه الى الآن ان الدكتور باحث إجتماعي، وانه من ابعد الناس عن هذا الفن ومن أقلهم خبرة باصوله ومعاييره فمن حقي وحق الناس ان نختبره قبل أن نناقشه.

دعوة إلى الإختبار:

إنه مدعو الى اختبار شعري عن طريق الإذاعة العراقية فليسمع الناس شيئاً من مختار شعره ونبيل معانيه واغراضه لنطمئن الى انه إذ يستصدر الأحكام على الشعر العربي اهل لهذه الأحكام، جدير بمناقشة الأدباء، بل هو مدعو الى اقل من هذا: مدعو الى ان يلقي عن طريق المذياع قصيدة لأحد الشعراء الذين ينتقصهم ويزدريهم امثال المتنبي والبحتري وابي تمام، فإن نجح في اختباره هذا وأرانا قدرة على ممارسة هذه الصناعة او قدرة على قراءة نص من نصوصها ابحنا له حق البحث في امر الشعر، وعاد من حقه على الناس وعلى الأدباء ان يشارك في الإدلاء براى.

الوردي سينكص:

ولكني استسلف حكماً على ذمتي الوفاء بتبعته ان الوردي سينكص عن هذا الإختبار المدعو إليه، لأنه لا يعرف من امر الشعر إلا هذا اللغو المكرور كلما اراد ان

يقول للناس عنه. وقد كنا نغض عن الناشئة الفتية حين تجترىء على الشعر العربي، وحين ترسل الأحكام عليه في سذاجة وبراءة، تدريباً لها على ممارسة نقده، ورجاء ان تبلغ في مستقبلها حظاً من التكامل وليس "الوردي" واحداً من هؤلاء الفتيان الذين نرجو ان يصححوا اخطاءهم بانفسهم، وإنما هو رجل إكتهل وجسا فلا بد له من تقويم وتثقيف.

* * *

الوردي يتحدث عن الشعر العربي بجملته، فيصفه بانه شعر يعتمد على الموسيقى اللفظية، وإن حظ المعاني منه جد قليل.

وهذا كلام يسهل إطلاقه على من يريد إرسال الكلام إرسالاً. ولكني .. آل الوردي عن هذه الموسيقى التي دخلت الشعر العربي فصادفته خالياً او فقيراً إلى المعاني. اسأله: من اين جاءت؟

أمن مفرداته؟

ام من تراكيبه؟

ام من اوزانه؟

إن كانت من المفردات فليختر "الوردي" عدداً من المفردات العربية، التي يراها خالية من الموسيقى وحاشدة بالمعاني لنقفه على وجودها في الشعر العربي.

أو فليختر عدداً من الكلمات التي تضعف فيها المعاني وتقوى الموسيقى لنسمعه منها شعراً عربياً ممتازاً يحفل بأسمى المعاني والأغراض.

وإن كانت الموسيقى في التراكيب فليحدد لنا التراكيب التي تخلو من الجرس الموسيقي والتي تعتمد على الجرس الموسيقي لنشهد ما إذا كان الشعر العربي خالياً من تراكيب الصنف الأول، ولا بد مشتملاً على تراكيب الصنف الثاني.

وإن كانت في الأوزان فليحدد "الوردي" الأوزان التي تكسب الشعر العربي جرساً من التي لا تكسبه هذا الجرس لنطلعه على شعر عربي تجنب هذه الأوزان، واحتفظ بروعة الشعر البالغ في الجودة.

بل فليختر اي وزن شاء من الأوزان غير العربية مما نقل عن الأمم الأخرى فليست الأمة العربية وحدها تلتزم الوزن لنشهده على الشعر العربي حين نظم عليها، هل خلا من الجرس الموسيقي، وظهرت فيه المعاني قوية قوتها في الشعر الأجنبي؟ بل ساذهب مع الدكتور "الوردي " إلى ايسر من هذا فاطلب منه ان يتقدم بأي معنى من هذه المعاني الأعجمية التي اعجب بها، ليشهد ما إذا كان في وسع الشعر العربي ان يصطنعها وان يسمو بها أم لا؟

واجبه...

لقد كان واجب "الوردي" وهو باحث إجتماعي عماده الإستقراء والإستيعاب. ان يقوم بتجارب من هذا القبيل قبل ان يستصدر الأحكام ليخلص إليها مطمئناً مبرا الذمة والضمير.

واقع الشعر العربي:

إن الشعر العربي كـ"فن" يختلف بإختلاف قائليه حظاً منه، فيه الحافل بالمعاني الكريمة وبالآراء الصائبة، والهواجس الخفية، وفيه ما هو دون ذلك درجات، تصل في ادناها إلى الحالة التي وصفها به الدكتور، والحال فيها نظير الحال في اي اثر يعتمد على ذاتية قائله وحظه من سلامة التفكير والتعبير، ولو كان كبقية العلوم يقتبس من كتاب او يؤخذ عن استاذ لإستوى او لتقارب فيه حظ الدارسين، ولعاد كبقية العلوم التى ليس لدارسها إلا حظ الأخذ والنقل عن أساتذتهم في إدعاء عريض يصدعون به رؤوس الناس.

الوردي والغزل في الشعر العربي:

ويذهب "الوردي" إلى غلبة الشعر الغلماني على الغزل في الشعر العربي، ويخرج منه إلى سيطرة الشذوذ الجنسي على العرب منذ طلائع العصر العباسي وقيام الحواضر الإسلامية، ودليله على ذلك عودة الضمائر في الشعر الغزلي على مذكر.

ولن ادخل في مناقشة إستنتاجه إلا بعد أن اتاكد من فهمه لطرق إستعمال الضمائر في العربية فإني أحسب انه يجهل كيفية إستعمالها في النص الأدبي، وإلا فليجبني علام يعود الضمير في ابيات احمد شوقي الغزلية:

واغن اكحل من مها "بكفية"   علقت محاجره دمي وعلقته

دخل الكنيسة فارتقبت فلم يطل فوقفت دون طريقه فزحمته

اعلى نكر ام انثى؟

وفي قول الشبيبي متغزلاً:

تنبه العقل للسلوى يحركني فنبّهت حركات الشوق اعصابي
وطالما سرت في درب فلم ارني إلا وقد علقت يمناي بالباب
ياسادتي لثم أيديكم على شفتي فضل وإلا فقدري لثم اعتاب

ايتغزل في سادة نكور ام سيدات إناث، ام سيدة واحدة؟.

وفي قول محمود طه المهندس متغزلاً:

مر بى مستضحكاً في قرب ساقي يمزج الراح باقداح رقاق
قد قصدناه على غير إتفاق فنظرنا وابتسمنا للتلاقي
وهو يستهدي الى المفرق زهرة ويسوى بيد الفتنة شعره

الى ان يقول في وصفه:

ذهبي الشعر شرقي السمات مرح الأعطاف حلو اللفتات

الذي التقى به المهندس فتى ام فتاة؟

قول الشرقي:

عربي مكلمي عجمي ربي اجعل لسانه بفمي
خاطفاً مر بي ومن عجب خاطفاً مر بى فرد دمي

امَّرت بالشرقي خاطفة فتاة اعجمية او فتى اعجمى؟

وفي قول المتنبي:

فلو كان ما بي من حبيب مقنع عذرت ولكن من حبيب معمم

فمن كان حبيب المتنبي المعمم ياهذا؟

وماذا أراد الشعر القديم وقد نص على الذكرانية في قوله:

وإنما رجل الدنيا وواحدها من لا يعول في الدنيا على رجل

اكان الرجلان في البيت ذكرين أم انثيين، أم احدهما ذكراً والآخر انثى؟

وفي قول الآخر:

ما احسن الدين والدنيا إذا اجتمعا   واقبح الكفر والإفلاس في رجل

ايريد رجلاً أم إنساناً من اي الصنفين؟

* * *

إن الذي دخل الكنيسة في ابيات شوقي فتاة! والسادة في بيت الشبيبي فتاة، وهذا الذي كان يسوي بيد الفتنة شعره في غزل المهندس كان فتاة رومية.

والأعجمي الذي اختطف قلب الشيخ الشرقي يغلب على الظن انها طفلته التي لم تعد تفصح لصغرها.

وحبيب المتنبي المعمم كان "سيف الدولة" .

وكلمة الرجل في البيتين تعني إنساناً من الصنفين ذكراً كان أم أنثى.

* * *

إن معاد الضمائر في الشعر العربي لها ملابسات تخفى على غير ابناء هذا الفن إذا كانوا من نسق الدكتور الوردي، واستعمال ضمير مكان آخر شيء مألوف مستطرف عند العرب منذ الجاهلية، وقد حفل القرآن الكريم بطائفة من ذلك إذ يقول: "حتى إذا كنتم في البحر وجرين بهم." ويقول: "ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون."

وفي البيت الآتي يتقلب الضمير ذات اليمين وذات الشمال ومرجعه واحد.

تطاول ليلك بالأثمد   وبات الخليُّ ولم ترقد

وبت وباتت له ليلة   كليلة ذى العائر الأرمد

ولعل اقرب الموضوع إلى الدكتور حين اذكره بالمثل العامي "المعنى بقلب الشاعر" و"الضمير يعود على هله" .

***

وخلاصة الفكرة: إن ضمائر التذكير والتأنيث لا تحدد المقصود منها في الاساليب الأدبية شعرية كانت أم نثرية. نعم حين ينص في مقدمة القصائد الغزلية انها قيلت في وصف غلام أو في وصف مليح – على شك في التعبير الثاني – او إحتوى الغزل على صفات خاصة بالغلمان، صح ان نستظهر ان الموصوف والمقصود غلام لا فتاة.

ولكن هذا النوع قليل جداً ويكاد ان يكون نادراً في بعض الدواوين ومعدوماً كل الإنعدام في دواوين كثيرة. وليس من المألوف ان يتقدم به في مطالع القصائد لمختلف الأغراض وبخاصة تلك التي تقدم لمدح خليفة او ملك او امير او تنظم في مدح النبي واهل بيته.

ومثل هذا النادر لا يصح أن يعمم على الغزل العربي بهذا المقياس الواسع فينتهي الإستنتاج بباحث إجتماعي إلى غلبة الشذوذ الجنسي عند العرب او عند المسلمين.

إن اغلب الغزل في الشعر العربي وبخاصة لدى محترفي الشعر لا يعني محبوباً بعينه ولا يصح ان يتخذ ظاهرة حب معين لدى الشاعر، وإن افصح النص عن ذلك، وإلا دخل في باب التشبيب والتشهير الذي ينزل بصاحبه جريرة الحد الشرعي، ويثير عليه نخوة اهل الفتاة المتغزل بها. يظهر هذا من مدح كعب بن زهير للرسول الكريم في قصيدة (بانت سعاد).

فمن (سعاد) التي عناها كعب ووصفها امام الرسول بانها هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة، لا يشتكى قصر منها ولا طول، ومتى (بانت)، وإلى اين ذهبت حين تبلت قلب (كعب)؟

لو كانت سعاد فتاة بعينها لزجره النبي، ومنعه من التشهير بحرمتها وحرمة اهلها، ولكنها صورة خيالية من صور الوهم.

* * *

إن حال الغزل عند العرب منذ صار الشعر حرفة شبيه بحال القصص عند الأجانب، لا يسال القصاص فيها ان يكون ابطال روايته قوماً لهم وجود خارجي. ولا يعنى القاص إذ يضع نفسه طرفا للحوار انه كان كذلك طرفاً فيه حقاً.

إن غلبة الضمير المذكر على الشعر العربي له سببان فيما احسب؛

اولهما النزعة العرفانية الصوفية وهذه تقتضي تذكير الضمير.

وثانيهما تحاشي ضمير المؤنث خشية أن يتهم الشعر في وصف امراة بعينها، الأمر الذي يتحاشاه الشعراء تخوفاً او تأثماً.

ولست أريد أن أعصم المجتمع العربي والإسلامي عن شذوذ لا تخلو منه امة ولكنني اصحح خطأ يردده السذج من دارسي الأدب وناقدي الشعر، ويعممه ويهوله المتسرعون من مدعي الدراسات الإجتماعية ليكوّنوا منه آراءً متطرفة تستثير فضول الناس.

المقالة الثالثة

الوردي وحديث الشعر العربي:

ينعت الدكتور الوردي الشعر العربي بنعوت، تجدها متناثرة في مقالاته، فهو عنده من حيث القِيم بدوي، ومن حيث الأغراض والبواعث إستجداني، يجري كله او جُلّه في ركاب السلطان، ينظم غزله لدغدغة عواطف الخلفاء والملوك ومن يدنو منهم في جاه او سلطان، ويراد وصفه للترويح عن نفوس المترفين، وتطييب اسمارهم على موائد اللهو والطرب والمجون، وتحبر مدائحه تبريكاً للسادة في الغزو الظالم، والإياب الغانم. اما رثاؤه فهو التوجع المصطنع والتشاجي المكذوب، في حسرة على ما فات الشاعر من مغانم لو بقي المرثي حياً، وعلى ما يرجو من اهله وقد بقوا احياء. إلى ما يشبه هذه النعوت التي إن لم ترد في نص الفاظها فهي تؤدي إليه.

ثم يشفع الدكتور الفاضل نعوته المارة بالدعوة إلى هجر هذا الشعر، والخروج عليه. ولا بد انه يريد شعراً حضري القيم، شعبي الروح، يعنى بشوؤن العامة قبل الخاصة أو دون الخاصة، يتناول احاسيس الطبقات الفقيرة، ويتحدث عن آمال الشعوب في الحياة، في بواعث سامية الأغراض، كريمة الأهداف.

الدعوة إلى هجر الشعر العربي القديم:

وسنرجىء الكلام على النعوت التي وسم بها الشعر العربي القديم إلى مقالة آتية، ونسأله عن هذه الدعوة التي يتصايح بها ويروّج لها من هجر الشعر القديم، والزهد فيه، فنسأله عما ياتي:

أيريد الدكتور الفاضل هجر الشعر القديم بترك المتابعة له في إنشاء مثله، واحتذاء قوالبه، وذلك بالتجافي عن اغراضه، والترفع عن بواعثه؟

أم يريد هجره بترك النظر فيه في الدراسات الوصفية، وذلك بالاعراض عن دراسة أصوله ومصادره وظروفه، وكل ما يتصل بتاريخ أدبه. ويعرف الناس به؟

فليس لهجر هذا الشعر العربي والزهد فيه إلاّ هذان الغرضان.

الدعوة إلى هجر الشعر في محاكاته:

إن كان يريد الأول وهو ما يتناسب مع دعوة باحث إجتماعي يصطنع الإصلاح فذلك يشهد على أن الأخ الفاضل يجهل ما أصاب الشعر المعاصر من تطور، وما سرت فيه من روح، وما داخله من تنوع في البواعث والأغراض.

يجهل هذا وهو بالقرب منه، وتحت سمعه وبصره، ولعل شطره مما ينشر إلى جانب مقالاته، فكيف به عن شعر بعيد عن متناوله، قليل المحاكاة في عصره، متباعد عن زمانه ومكانه؟

كان يجدر بهذه الدعوة أن تبعث أو يبعث صاحبها (ولله في خلقه شؤون) قبل خمسين عاماً لتجد مكاناً في المجتمع الشعري ومجالاً للتطبيق العملي، اما وقد تخلفت وتخلف ظهورها عن ركب الحياة الذي انطلق قبيل نصف قرن فليس حال الداعي لها إلا حال المنقطع عن الركب، المتخلف عن القافلة يقبض عصا الراند، فيلوح بها من وراء القافلة: أن سيروا قدماً أيها المتخلفون المنقطعون.

الشعر المعاصر:

لقد كان الشعر المعاصر اسبق مظاهر حياتنا إلى التحول والتبديل، وكان ما داخله من روح العصر ومذاهب الحياة المحدثة اكثر مما داخل اي مظهر فكري آخر. داخل التطور موضوعاته واغراضه فلم يعد حافلاً إلا نادراً باغراض الشعر التي سبقته. وداخل أساليبه وأخيلته فلم يعد يعمر بتلك الأخيلة والأساليب. وداخل أوزانه وقوافيه، وتجاوز كل هذا إلى شيء يبعد به كل البعد عن ا ؛ مر العربي القديم، حتى خيف عليه أن تنقطع صلته بالماضي إنقطاعاً تاماً، وان يصبح كائناً ليس له من سمات اهله نصيب.

أما الجري في ركاب المترفين وتزيين مفاسدهم ومساوئهم مما وسمت به الشعر القديم، فلم يعد له وجود يستحق التنويه، بل الأمر على العكس، إذ ليس من

سوط يلهب ظهور المترفين، ويفزعهم في ليل أحلامهم المشرق كالشعر المعاصر، ولعلهم لا يخشون شيئاً خشيتهم إياه ولا يحاربون فئة كما يحاربون الشعراء.

الشعراء المعاصرون:

لو وضعنا الشعراء في أي قطر عربي، في مقابل اي طبقة من الطبقات المثقفة، الناهضة بفرع من فروع الثقافة لوجدناهم ابعد من سواهم عن مسايرة الأوضاع الفاسدة القائمة فيها، واقلهم إسداء عون الى الفئات المستغلة، بتبرير مساونها، وخلع الصفة المشروعة عليها، ولوجدنا سواهم من الفئات المثقفة تضلع في الركب المثقل في جلوة من الزهو والإفتخار، بدل التواضع والإستحياء مما مكنهم منه حرمان الشعوب.

فماذا يريد الأخ الوردي للشعر المعاصر وللشعراء المعاصرين؟

لعل الدكتور لا يدري ان الشعر المعاصر ندَّد بالخليفة العثماني منذ قرن على وجه التقريب، وانه دعا الى بعث الدستور قبل أن يبزغ القرن العشرون، وانه ظل — وما فتيء — يحارب الإستعمار واذنابه في كل مكان من البلاد العربية، وانه ساهم بعد هذا في كل دعوات الإصلاح. دعا الى التعليم، وحرية المراة، وسفورها، دعا الى العدالة الإجتماعية، والى المساواة في الحقوق والواجبات، بل لم يفته أن يدعو حتى الى الرفق بالحيوان.

وهكذا نرى دعوة الدكتور لنبذ الشعر العربي القديم في محاكاة ومتابعة ليست بذات موضوع حتى تجد مكاناً للقبول، ومجالاً للترويج.

الدعوة الى هجر الشعر العربي القديم في مدارسته:

اما ان اراد بدعواه في التنديد بقديم الشعر العربي صرف الناس عن مدارسته، ومراجعة اصوله، وتبين خصائصه من قبل الباحث في مفردات اللغة، والناقد لأساليب البيان، والمؤرخ لعصور الأدب والناظر في التاريخ الحضاري للأمة العربية، والباحث الإجتماعي الواصل بين مختلف مظاهر الحياة الإجتماعية، الى غيرهم ممن لم يعدم ضرورة أو فائدة من مراجعته.

إن كان يريد هذا فما اعرف لهذه الدعوة مؤدى ونتيجة إلا قطع اسباب المعرفة

عن الناس، وسد مجاري البحث في وجوههم بردم المنابع الأولى، وبالإجهاز على جهد امة كان لجهدها في التاريخ الحضاري نصيب ليس بالهين اليسير في اخس الفروض والإحتمالات.

إن الشعر العربي توراة هذه الأمة في قديمها الجاهلي، ومظهر نشاطها الذهني يوم لم يكن لها نشاط عقلي سواه، فليس بباحث او مؤرخ غني عنه حين يعمد إلى بحث أو دراسة لقديمها الجاهلي.

ثم هو احد مظاهر نشاطها الذهني واعمالها الفنية يوم قامت لها مظاهر من نشاط اخرى.

وحين بدأت عهداً للتاليف ووضع اصول العلوم اللسانية والعقلية فزعت إليه في تحرير قواعد تلك العلوم، تتلمس فيه المفردات الدقيقة والمصطلح المواتي، وتستخرج منه التقليد الشائع، والعرف السائد، والأثر المطمور والحدث المجهول، وحين استقر لها عرفان بمذاهب الفلسفة وأسس علم الجدل والتصوف لم تجد بداً وقد اعوزها الوصل والتوفيق بين ظواهر القرآن والسنة وهذا الفكر الجديد الذي طالعها — من ان تفزع إلى الشعر تستخرج منه الشاهد والدليل، والشبيه والنظير إلى غير ذلك من مزايا اصابتها من دراستها ومعاودتها للشعر العربي القديم.

وما كان للدكتور أن يتحفنا بهذه الطرف من سلسلة أفكاره لولا رجوعه إليه واعتماده عليه، فلماذا يزهد الناس ويحاول صرفهم عن شيء بلغ به في غير اختصاص وسابق دراسه درجة اصحاب المذاهب الادبية في العصر الحديث على حين لم يوفق أو يجرأ غيره من أصحاب الدراسات المركزة إلى مثل هذة الطرف المنقاة.

قيل لفيلسوف مريض: "ما تشتهي؟"

قال: "ان أشتهي" .

فلعل شهوة الكلام من شهوة الطعام.

المقالة الرابعة

الدكتور الوردي فيما نعت به الشعر العربي القديم:

وصف الدكتور الفاضل الشعر العربي القديم بأوصاف ألمحت إليها في مقالي السابق، وأرجأت النظر فيها إلى هذا المقال.

وخلاصة ما نعت به الشعر العربي بأنه بدوي القيم، إستجدائي البواعث، ينظم غزله لدغدغة عواطف المترفين، ويساق وصفه لتطييب سمر الخلفاء والملوك، ويجود مدحه ورثاؤه لتبرير ما يأتي به أولئك من أعمال ما كانت مبررة مستساغة لولا هذه المؤازرة من المدح المزخرف والكذب الملفق إلى ما يساوق هذا من نعوت إن لم يوردها صراحة فإنها تؤدي إليه من خلال السطور.

ولابد قبل مناقشة الدكتور الفاضل من وضع ملاحظات بين يديه تعينني وتعينه على تبين مدى ما يمكن أن يحق أو يبطل من تلكم النعوت، وتكون هذه الملاحظات بمثابة الأبواب التي يولج منها إلى دراسة الشعر من قبل المعنيين بأمر دراسته. ومن قبل الباحثين الإجتماعيين والنفسيين الذين يصلون بين الشعر ومجتمعه، أو بينه وبين قائليه، في دراسات تاريخية أو نفسية، فإنا لا نود أن توصد الأبواب في وجوه هؤلاء، أو أن يصدوا عن إصابة موائده، ولكننا نرشد إلى مكان الدخول وطريقة التناول، فقد تسلقها قوم من على الشرفات والجدران وولجها آخرون من الباب الخلفي، حتى إذا جلسوا من المائدة مكان المدعوين أخذهم البهر والسعال، وطفقوا يتجشأون ولما يصيبوا من الزاد إلا اليسير الهزيل.

ملاحظات لا بد منها:

إن ما بين أيدينا من الشعر العربي معمر موغل في القدم، فالذي بين أيدينا من الشعر الجاهلي يشهد بأن الجاهلية القريبة ليست عهد نشأته أو صباه على كل

حال، وأنه استمر منذ الجاهلية حتى اليوم يتقلب حياً، وينتقل بين عهود بدوية وحضرية، ويقال على ألسنة مختلفة الأرومات والأنساب، وفئات متنوعة الثقافات والدراسات، وهو بهذا لم يقصر على السلالات العربية دون سواها، ولا على المجتمعات البدوية دون غيرها، وإنما انصبت في أوديته وشعابه مختلف ثقافات وحضارات، إختارت العربية ترجماناً لما لديها من أخيلة وأفكار.

ولهذا فإن نعت الشعر العربي جميعه بنعوت البداوة أو الحضارة في مختلف عصوره وأزمانه ومختلف قائليه ومجوّديه يعتبر مجازفة تعرض صاحبها إلى الخطأ في التقدير، وإلى مجافاة القصد في الأحكام.

* * *

2 – إن الشعر استعداد يبدأ فطرياً من غير باعث أو مثير خارجي. ثم ينمو بفعل المؤثرات التي تلابسه من البيئة الإجتماعية والتربية التعليمية، ولم تستأثر البواعث الخارجية في حفزه وتوجيهه إلا بعد أن يبلغ صاحبه نصاب الأنعام والإجادة، وهي مرحلة متأخرة قد لا يبلغها الشاعر إلا بعد فترة مديدة من الحياة، فهو يتغزل قبل أن يحب، ويمدح قبل أن تقوم له ظروف قاسرة على الاستجداء، ويصف ما تقع عينه عليه، أو يشهد مثله في شعر الشعراء قبل أن يعرف كيف تكون موائد المترفين، وبماذا تطيب أسمارهم وتعمر لياليهم، وهو يخلق لنفسه بواعث منها حين لم يجد بواعث للقول؟

يظل على هذا وهو يعالج امر الشعر ويعاني قرضه، حتى إذا إستوت له بواعث القول من حب يسوقه إلى الغزل، او ضيق يلجئه إلى التكسب بالمدح، أو مناسبة تضطره إلى الهجو. تغزل ومدح وهجا وهو حتى في هذا الطور يظل خاضعاً بالدرجة الأولى إلى الشهوة الفنية، ذات الحافز الداخلي، وإلى كسب الشهرة أكثر من كسب المال. ومتى خبرنا نفوس الشعراء وداخلنا بواطنهم ولا بد من ذلك في كل حكم يستصدر عليهم ألفينا انها تطرب لقول: "احسنت واجدت" اكثر مما تطرب للبدر تنثر عليها، والهدايا تقدم لها.

ولو كان بإمكان الشعوب يومها ان تقيم لهم المهرجانات، وتخلق المناسبات الشعبية، لما تخلفوا عن شعوبهم وإن جر عليهم ذلك الحرمان والفقر.

ولكن مجال تنفس الشهوة الفنية كان محصوراً في أغلب الأحوال في مهرجانات الخلفاء والولاة، فكان لابد لهم أن يتنفسوا في تلك الأجواء.

وعليه فليس تزلفهم للظالمين بدافع التزلف وحده، والرغبة في تمكين اسباب العسف والطغيان.

إنها الفنية تعتلج في صدورهم ولا تجد لها متنفساً إلا في تلك المباءات.

وهذه الملاحظة وإن وافقت الدكتور الوردي في قيام هذه الظاهرة إلا انها تختلف عما يقول في تسبيبها ومنشا قيامها في نفوس الشعراء.

* * *

3 – إن اغراض الشعر العربي وموضوعاته إنحدر اغلبها من عهود الجاهلية، فقد عرف الغزل والوصف والمدح والهجاء والحماسة قبل ان تنشا في الوطن العربي طبقات، وقبل أن ينقسم الناس الى سادة وعبيد وعرب وموالي، ومؤسرين ومعدومين. كان وصف الخمرة ديدنا لكل شاعر، ينظمه إمرؤ القيس وهو ملك، ويتعاطاه عنترة العبسي وهو ابن أمة يرعى نياق عمه، ولا يتحاشاه كعب بن زهير في استطراد من قصيدة يمدح بها الرسول.

وعادت هذه الموضوعات تقليداً شعرياً، يختبر فيها الشاعر مدى قدرته على طرقها والإجادة فيها، فلا بد لكل شاعر ان يتدله وان لم يكن من الغرام على شيء وان يتحمس وإن لم يكن من الشجاعة في شان. وان يصف الشيب وهو شاب يفع، ويتكلف الشباب وهو طاعن، وان يبكي الطلول والديار وإن قام في الحواضر، وإن يصف الخمرة وإن لم يكن من شاربيها، وان يتصنع الحكمة وهو من اكثر الناس مجوناً وسخراً من الحياة، وان يصطنع المجون وهو من اشد الناس تزمتاً ووقاراً.

وحسبك ان تعرف ان "ابا العلاء المعري" هو صاحب القصائد "الطرديات والدرعيات" في حين انه كفيف لم يشهد رهاناً، ولا ادرع لحرب.

وعليه فمسالة طرق مختلف الموضوعات لم تكن من جانب الشعراء إلا محاولات فنية إختبارية، وإن قامت لبعضها لدى شطر منهم اسباب من ملابسات الحياة.

ومتى لاحظنا هذا لم نستطع أن نثبت غلبة موضوعات وصف الخمرة مثلاً على بقية الموضوعات لدى كل الشعراء أو اغلبهم وفي كل العصور، بل الشك سائر حتى في هذا الذي يدعى لأبي نؤاس مثلاً، فليس أكثر شعره في وصف الخمرة بحال من الأحوال.

* * *

4 – ووصلاً بما تقدم فإنه لا ينظر إلى مسالك الشعراء إلا من الوجهة الفنية البحتة التي يولونها الإعتبار الأول في كل سلوك وإتجاه، ولم يك الناقدون الأقدمون ينظرون إليهم إلا من هذه الزاوية.

ليس الشعراء في أغلب الأحوال أصحاب رسالة في الحياة سوى هذه الرسالة الفنية، ولا هم اصحاب مذاهب سلوكية أو عقائدية او سياسية يلتزمونها.فالشاعر شاعر قبل أن يكون شيئاً آخر، وإذا اتفق لأحدهم إن كان ذا راي وعقيدة أو مسلك في الحياة فذلك لا يمس فنيته او مقاييسها، لذلك فقد يخرج على رايه، أو يتظاهر بخلافه، كما يستجيب رأى مخالفيه، ويعجب بمسالك خصومه إذا استوى لها النصاب الفني، وتهيات لهم اسباب الإجادة.

* * *

إن إسلامية " حسان بن ثابت" لم ترفعه في نظر نفسه ولا في نظر المسلمين على وثنية "عنترة العبسي" ، وشعر ابي العتاهية في الزهد والوعظ لم يلحقه بالأخطل حتى في راي المتنسكين من رجال الدين، بل شعر "ابي العلاء" في لزومياته – وأكثره فلسفة خلقية– لم يزد شأناً في نظر الناقدين على ديوانه "سقط الزند" .

بهذه البواعث الفنية كان ينظم الشاعر، ومن هذه الزاوية كان الناس ينظرون إليه.

إن البدعة الجديدة الذاهبة إلى ان الشعراء اصحاب مذاهب وعقائد، وانهم دعاة رسالة في الحياة– غير تلك الرسالة الفنية– من خرافات الدراسات المحدثة، ومن شانعات هذا الجيل، قراها الدارسون عن شعراء الأمم الأخرى ونقلوها إلى شعراء العربية، واراودها للشعراء المعاصرين فقدروا مثلها للشعراء المتقدمين.

* * *

ومتى وضعنا الأمور في نصابها، وفي حدود ما قدره الناقدون المدركون لواقع الشاعر العربي والشعر العربي القديمين ادركنا واقع مهمته ورسالته، وجنبناه تحمل المسؤولية من مكافحة ظلم الظالم، ومناصرة حق المحق، ورفعناه عن الإستجابة الرخيصة لزهد الزاهدين او ترف المترفين، وآمنا بأن كل ما يصدر عنه خاضع بالدرجة الأولى الى الإستجابات الفنية فيما قدر واصطلح عليه من فنية للشعر.

الشاعر العربي القديم كآلة التصوير الحدثة، تقع على مختلف الأشياء فتصورها، سواء عليها أن تقع على ملاك او شيطان. وبهذا نفسر التناقض الحاصل في شعر ابي العلاء من تردده بين الإيمان والشك، والتفاؤل والتشاؤم، ونصل بين دعاوى ابي الطيب المتنبي في العزة والكرامة، وخضوعه وتقلبه على باب كافور.

المقالة الخامسة

ولست أقصد إذ أنفي عن الشعراء القدماء صفة حملة الرسالة والرأي عدا الرسالة الفنية أن أجردهم عن رأي يعتقدونه،او مسلك ينهجونه في الحياة،إذ من شبيه المحال أن تتجرد نفس عن رأي، وسيرة عن مسلك، ولكني اقصد أنهم إذ يلابسون الصفة الفنية يتجاوزون كثيراً من عقائدهم ومسالكهم، ويتحللون من روابطهم واواصرهم، إلى ماتقتضيه طبيعة الشعر من فناء الذاتية،وانمحاء الشخصية، لتقوم مقامها الشخصية الفنية في استيلاء طاغٍ على سائر الجوانب.

كما لايعني هذا انني ارضى بمسلك الشعراء، او اريده للجيل المعاصر، وإنما ابغي أن أقرر حقيقة كانت قائمة، لابد لنا كدارسين وصفيين الا نغفلها من حسابنا عند الدراسات.

ولعل ما نشهده اليوم من انشطار بعض الشخصيات الشعرية راجع إلى تلك الرواسب التقليدية في فن الشعر، ولكن بقاءها إلى العهد الذي أراد الناس فيه أن يكون الشاعر صاحب رسالة في الحياة عرّض بعض الشعراء إلى نقد المعاصرين، والى وصفهم بالإحالة والنكوص عن الرسالة التي بشرّوا بها، وادعوها رأياً ثابتاً لهم في الحياة.

في ضوء الملاحظة الأولى من امتداد تاريخ الشعر العربي، واتساع مواطنه وآفاقه، وتنوع قائليه في السلالات والثقافات، واستخدامه في اغراض النفس المختلفة لا يصح لدارس الظواهر الإجتماعية ان يسبغ على الشعر العربي في كل أطواره واحواله قيم البداوة اللهم إلا ان يتعامى عن ابسط قواعد الإجتماع، من تأثر الفنون ببيئاتها وثقافات اهلها، واختلافهم في السلالات والأصول.

ولو ان الدكتور الوردي سمّى القيم البدوية بأسمائها، وارشد إلى مكانها من

الشعرالعربي، وصوَّر مدى طغيانها عليه لإتفقنا معه، أو طلعنا عليه بنقائضها. وأريناه القيم الحضرية يزخر بها الشعر العربي ولذلك فهو مدعوٌ إلى أن يذكر لنا عشراً من القيم البدوية – وأرجو أن يفرق بين المعاني البدوية والقيم البدوية فإنهما ليسا شيئاً واحداً– لنقرنه أضعافها من القيم الحضرية وسنترك له تسهيلاً لمهمته، وتمكيناً له من تحقيق دعواه ان يختار لذلك العهد الجاهلي إذ انه احفل العصور عادة بالقيم البدوية.

وقد يكون بإمكاننا أن ندلّه على مواطن القيم البدوية والحضرية في الشعر الجاهلي، ولكننا نفضّل أن نذيقه عذاب الفحص والتحري حتى يتورع عن إرسال الأحكام مرة أخرى.

في ضوء بقية الملاحظات ينبغي ألا ينخدع المؤرخ إذ يشهد في الشعر وصف حادثة أو معركة، أو مدح ملك أو خليفة فينزل النص الشعري منزلة النص التاريخي، فيعول عليه في تصوير الحادثة، وتعليل عواملها ونتائجها فإن الشعر كلغة خاصة في التعبير تستدعي من التزيد والإغلاء مالا يستدعيه النص النثري. فالعوامل الفنية تفعل فعلها في خلق الأشخاص والأسباب، وفي تحوير الحقائق تحويراً يبعد عن الواقع، ولا يرد النص إلى وجهه الواقعي إلا اليقظ المنتبه إلى ما تقتضيه الفنية من وجوه التعبير.

وكذلك الحال في الدارس الإجتماعي، إذ يشهد ظاهرة يدعّي الشعراء شيوعها أو ظهورها في مجتمع من المجتمعات، أو يبدو من مسالكهم أو اتجاهاتهم أنها شائعة، فيسري الدارس الإجتماعي بهذه الظاهرة على المجتمع. فالشعراء طبقة كانت لاتمثل – إن صدق تمثيلها– إلا نفسها، أو الطبقة التي تحيط بها، فلن يصح أن تؤخذ سيرة أبي نؤاس صورة من صور المجتمع الإسلامي انذاك، ولااستحسان المسلمين شعره، مظهر من مظاهر الحياة المرضية عندهم. وغاية مايمثل صنيعه جانباً ضيقاً من جوانب حياتهم؛ فإن تجاوزه إلى ماسواه من المجتمعات فإلى كره له من أكثرية المسلمين، وإلى رضا لايتجاوز حدود الناحية الفنية القولية.

فحمل مسالك المجتمعات على مسالك الشعراء أو اقوالهم ينقصه الواقع العملي في فهم نظرة الناس إلى الشعراء. إذ لم يكن الشعراء يوماً ما مثلاً سامياً للحياة

السلوكية عند اغلب المسلمين، وان يكونوا في الإنتفاع بأمثالهم السائرة، وقصائدهم الجيدة على كثير من الإحتفاء والتقدير.

اما الحال في الدارس النفسي فيستدعيه من الحذر واليقظة مايؤدى به أحياناً إلى قلب المفاهيم، وحملها على نقائضها ومفارقاتها، ومتى استرسل الدارس النفسي إلى الداليل الشعرية، يستوحيها ما عليه نفوس هؤلاء الشعراء ودخائلهم انتهى إلى ما ليس قائماً فيها، وإلى مايكون الواقع خلافه.

ليس في الدارسين اشد غفلة من هؤلاء الذين يدرسون نفس الشاعر من شعره، ويستخلصون صورتها من قصائده، فالقصائد لايصدق منها إلا الجانب الفني الذي لاينتفع منه الدارس النفسي إلا في اهون الإعتبارات.

وبعد، فهذه جمله ملاحظات تعتبر مبادىء أولى لابد منها للدارس الإجتماعي والنفسي والتاريخي، ولابد قبلها من تفهم أصيل لروح هذه الصناعة وإلا ضلت به الطريق، وخبط – كما يقول المثل– خبط عشواء.

وليثق الدكتور الأخ بأن ماوجهت إليه من مآخذ لم يزوّغني وجوه الخير والحق في شطر من آرائه الإجتماعية، فقد كنت احد المنتفعين بها، كما أني ما تشهيت مطارحته او سعيت إليها رغبة في الجدل نفسه والمطارحة ذاتها، وإنما رأيت منه إلحافاً في امور ادبية ظل يرددها بمناسبة وبدونها، ويتكىء عنها كلما حاول الاغراب والاثارة، واجداً في لغط السذج، والبعيدين عن البحوث الج ية مطمعاً يغريه بالاستزادة والتكثر.

لقد اردت ان احميه من إغراءٍ دفعه اليه سذاجة بعض القارئين وأحميهم من عبث اولع به رجل ما كنت اريد له العبث.

كما ارجو ان يعلم باني سأترك له باب الإنابة وتصحيح افكاره مفتوحا، وأترك له ان يزعم عدم ذهابه الى مانسبت إليه من الأساس، وان يدّعي ان حملها عليه كان بالشبهة، فربما كان قد قالها من غير قصد، او قصدها في غير تقدير للنتائج.

واحسب انه سيقول كل هذا او بعض هذا في الرد علي ولكنى واثق بأنه سوف

لايعود في قابل ايامه الى هذه المجازفات وإن حاول ردها في الأيام القريبة. وحسبى ان يحكِّم آراءه ولو بعد حين.

وقد اعلن الاخ الفاضل ان سينشر رده على مقالاتى في كتاب اعده فارجو منه ان ينشر هذه المقالات مع وصلاً لها ببعضها، فذلك أجدى وانفع للقارئين، واثبت لأحكام الناقدين إذ يلقون باضوائهم على الجانبين.

مقالات المؤلف

المقالة الاولى

الأدب والاجتماع

في مثل هذه الأيام من العام الماضي كنت مشتبكاً في جدال عنيف مع بعض الادباء حول نظريات اجتماعية بحتة، وذلك بعد صدور كتاب "مهزلة العقل البشري" . وكان احد اولئك الادباء يجادلني حول نظرية توينبى في طبيعة الحضارة البشرية.

وقد لاحظت ان هذا الاديب لايعرف عن تلك النظرية شيناً كثيرا. ولعله لم يسمع بها قبل ان يقراها في كتابى. ولكنه كان بالرغم من ذلك يصول ويجول في نقد النظرية، واخذ يشتمها ويشتمنى معها. واتذكر انى قلت له حينذاك: "لاباس ان ينتقد الكاتب موضوعاً ليس من إختصاصه على شرط ان يعلم عنه شيئاً يخوله ذلك فلا يلقي الكلام فيه جزافا" .

فاجابني الاديب قائلا، بعد حفنة من الشتائم الشخصية: "لقد كان الادب العربى شديد الصلة بمختلف جوانب المعرفة منذ عصور بعيدة، على الاقل فى فترات الازدهار. وكان الاديب العربى مضطراً لان يلم بطرف من كل شىء، وليس الادب اليوم باقل صلة بجوانب المعرفة من الادب امس، وليس الاديب المحدث باضيق افقاً ولا باشح ثقافة من الاديب فيما مضى" .

وبعد عام من هذا الحادث وجدت نفسى مشتبكا في جدال آخر مع الادباء. وكان موضوع الجدل هذه المرة يتصل بالادب واللغة. فهب الادباء فى وجهي هبة واحدة

يقولون لى: "لماذا تتدخل فيما لايعنيك وتخوض في موضوع لست مختصاً فيه؟!"

ومن الذين قالوا مثل هذا القول صديقى الدكتور محي الدين في مقاله الذى نشرته جريدة البلاد منذ أيام.

وعجيب امر الايام. فقد كنت بالامس ألوم الادباء على نفس العمل الذى يلوموننى عليه اليوم. وصدق من قال: "يوم لك ويوم عليك!" .

الادب وعلم الاجتماع:

أود ان انتهز هذه الفرصة لأُبين وجهة نظر علم الاجتماع فى هذا الموضوع. فالمعروف عن علم الاجتماع انه يدرس الادب والتاريخ والاقتصاد والسياسة والدين والفن وماأشبه.

وقد ثار من جراء ذلك جدال طويل بين الباحثين: ايجوز لعلم الاجتماع ان يتدخل في مواضيع هي من إختصاص غيره؟

ومن التهم التى وجهت الى علم الاجتماع انه أصبح كدائرة المعارف، اذ هو يتدخل في كل فرع من فروع المعرفة ويبدى رايه فيها. ومعنى هذا انه يشبه الحمص الذى يدخل في كل طبيخ عندنا.

وكان جواب علماء الاجتماع على هذه التهمة ان علمهم لايدرس فروع المعرفة المختلفة الا من الناحية الاجتماعية. فهو حين يدرس حادثة تاريخية مثلاً، لايهمه كيف توصل المؤرخون الى تحقيق تلك الحادثة او الى إستقصاء القرائن والدلائل فيها. إنه يتركهم وشأنهم في اتباع منهجهم الخاص بهم.ولكنه يأتى اخيراً فيأخذ النتيجة التى توصلوا اليها ويستعين بها في دراسة المجتمع البشرى بوجه عام.

ومعنى هذا أن علم الاجتماع لايشارك المختصين في بحوثهم المنهجية، إنما يأخذ ما يصلون اليه من نتائج، فيضعها في بودقته الخاصة ليصهرها ويستخرج منها النظريات التى قد تساعد الانسان على فهم ما يحيط به من ظواهر اجتماعية معقدة.

وللقارىء ان يلوم علم الاجتماع في هذا، كما لامه من قبل كثيرون. ولكن علم الاجتماع لايستطيع ان يفعل غير ما فعل. فما دام موضوعه دراسة الظواهر الاجتماعية، فلا بد له من أن يتدخل فى كل ما له علاقة بتلك الظواهر.

ان المجتمع البشرى مؤلف من جوانب تاريخية وفنية وسياسية واقتصادية ودينية وغيرها. وإذا لم يدرس علم الاجتماع هذه الجوانب، فماذا يدرس اذن؟

حاول بعض علماء الاجتماع فى المانيا ان يحددوا موضوع علمهم في نطاق ضيق خاص به، لامساس له بمواضيع العلوم الاخرى. وذلك لكى يتجنبوا اللوم الموجه اليهم من كل جانب. والظاهر انهم لم يوفقوا فى ذلك توفيقاً كبيرا.

ونحن نامل ان يوفقوا فيه لكى نتخلص من هذه الورطات التى نقع فيها مع الادباء او رجال الدين او الساسة، حيناًبعد حين ولا قوة الا بالله.

هل انا متطفل؟

اتهمنى الدكتور محي الدين بالتطفل والفضول حين رآنى انقد الشعر العربى. ولم يكتف بذلك بل اخذ يتحدانى الى إختبار فى نظم الشعر او في تلاوته عن طريق الاذاعة العراقية. واضاف الى ذلك قائلاً بانى سانكص عن ذلك الاختبار المدعُو اليه لانى لااعرف من الشعر الا هذا اللغو المكرور كلما اردت ان اقول شيئاً للناس عنه.

ومن طريف ما حدث في هذا الشأن ان جاءنى احد الاصدقاء، عصر اليوم الذى صدر مقال الدكتور فيه، وهو يحمل بيده قصيدة عصماء يريد أن يختبرنى بها. وصار الحاضرون يرمقوننى بأبصارهم كانهم يودُّون ان يعرفوا نتيجة الامتحان. ثم ضحكوا حين وجدونى ارفض الامتحان بكل إباء، واعترف بالعجز فيه. وكانت نكتة الموسم!

قد يظن الدكتور ان ناقد الشعر يجب ان يكون قبل كل شىء شاعراً، او على الاقل قادراً على إنشاد الشعر في دار الاذاعة العراقية الجليلة. وهذا رأى لا اوافقه عليه. ولست أعتقد أن هناك كثيرين من الناس يؤيدونه فيه.

اكاد اشعر بأن تحدي الدكتور لي لم يكن في محله. ولست أدري ماالذي دفع الدكتور الى هذا التحدي الغريب.

للدكتور الحق في ان يتحدى رجلاً يريد ان ينصب نفسه حكماً بين الشعراء فيفضل بعضهم على بعض من الناحية الفنية. وهنا أؤكد للدكتور إني لم افعل هذا ولن افعله، ولست منه في العير او النفير!.

إني لم أقل بأن شعر الجواهري أروع من شعر محي الدين، ولم اقل ان اسلوب دعبل اكثر جزالة من أسلوب البحتري. ولو كنت قد قلت هذا أو شبهه لحق للدكتور أن يدعوني الى الامتحان وأن يرسبني فيه أيضا.

ارجو من الدكتور ان لاينسى بأن الشعر له ناحيتان: فنية وإجتماعية. وهو في ذلك لايختلف عن أي شيء من شؤون الحياة. فالقصيدة الشعرية هي قبل كل شيء قطعة فنية. إنما هي بالإضافة الى ذلك ظاهرة اجتماعية لها مساس مباشر بما ينشأ بين الناس من صلات التعاون والتنازع.

للباحث الإجتماعي ان يحلّل القصيدة من حيث علاقتها بالمجتمع الذي ظهرت فيه، دون أن يتطرق الى ما فيها من صفة فنية، إذ هو يترك ذلك للمختصين من الأدباء. وهم في بلادنا كثيرون يكاد لايخلو منهم مكان والحمد لله..

ماقلته عن الشعر العربي:

قلت أشياء كثيرة عن الادب العربي بوجه خاص. وقد حاولت جهدي ان لااخرج في ذلك عن نطاق إختصاصي. ومما قلته فى هذا الصدد إن الشعر العربي القديم اختص بأمور ثلاثة قلما نجدها مجتمعة في اشعار الامم الاخرى، وهى: (1) مدح الظالمين(2) وصف الخمرة(3) التغزل بالغلمان. والذى دعانى الى هذا القول ما رايت لدى بعض ادبائنا المعاصرين من هيام مصطنع بالحق والحقيقة، فهم يصفون انفسهم بأنهم "شموع تحترق" بينما هم يمجدون عبقرية البحتري وأبي نواس والاخطل وغيرهم من الشعراء القدامى الذين كانوا من أبعد الناس عن طبيعة الشموع المحترقة.

نجدهم يحترمون الاديب الذى يتزلف الى السلاطين والمترفين ويعيش على فضلات موائدهم. ولكنهم في الوقت ذاته يحتقرون من يحاول ان يتزلف بادبه الى ابناء الشعب وينزل بأسلوبه الى مستواهم.

إنهم يتهمون من يكتب للشعب بانه تاجر يرتزق بادبه. اما من يكتب المترفين او يمدحهم بقصائده سعياً وراء الجائزة فهو في نظرهم اديب عبقري، وله في قلوبهم مكانة عليا.

إن الذي رجوناه منهم ان يدركوا طبيعة الزمان الذي يعيشون فيه، فلقد مضى عهد السلاطين وحل محله عهد الشعوب. ولايخفى على القارىء ان هذا موضوعاً اجتماعياً، وان لي الحق ان اخوض فيه مع الخائضين. ولست أجزم على اي حال بصواب رايي فيه. فإني كسائر الناس معرض للخطأ في كل ما افعل او اقول.

صدفة غريبة:

بعد ثلاثة ايام من نشر مقال الدكتور محي الدين في جريدة البلاد، كنت ماراً بسوق الوراقين، فعثرت في بعض حوانيته على المجلد الرابع من مجلة "الاستاذ" التى تصدر عن دار المعلمين العالية ببغداد. ولشدّ ما كانت دهشتي حين وجدت في هذا المجلد مقالة للدكتور عنوانها "الوازع الاجتماعى" . وهو موضوع من صميم اختصاص المسكين كاتب هذه السطور.

والغريب ان الدكتور ذكر في المقالة سبع خصائص للوازع الاجتماعى، لست ادري من اين جاء بها وعلى اي مصدر علمي استند فيها؟ ويبدو انه تامل في الموضوع ثم كتب فيه. ومن الممكن اعتبار مقالته من بنات تفكيره المجرد فقط لاغير!

ليطمئن الدكتور اني سوف لاأتحداه او ادعوه إلى امتحان فى علم الاجتماع، مثلما تحداني ودعاني الى امتحان فى نظم الشعر او في تلاوته. ففى اعتقادي ان لكل انسان الحق فى ان يخوض في القضايا الاجتماعية كما يشاء. إن علم الاجتماع لايزال طفلاً وهو إذن في حاجة الى مزيد من البحث في كل سبيل. وربما جاء المتطفلون عليه بآراء لايستطيع ان ياتي بها المختصون فيه.

إنما أرجو من أخى الدكتور أن لايحتكر دراسة الادب للادباء وحدهم. واذا جاز للادباء ان يبحثوا فى القضايا الاجتماعية، جاز للإجتماعيين ان يبحثوا في القضاياالادبية كذلك . إن الأدب والإجتماع وجهان لحقيقة واحدة هى الطبيعة البشرية.

كلمة بالمناسبة:

في الوقت الذي كنت فيه مشغولاً بمناقشة الدكتور محي الدين طلع علينا الدكتور علي الزبيدى، استاذ الادب العربى فى كلية الاداب، بمقال له نشره فى جريدة الحرية، قال فيه ما نصه:

"وقد قلت مراراً وتكراراً لزميلي الوردي أن ابحث فى مشاكلنا الاجتماعية الحاضرة...أمامك العائلة العراقية وما فيها من صراع داخلي رهيب بين جيل مضى وجيل عصرى جديد، والفرد العراقى وما تختلط فيه من متناقضات، والريف وما فيه من رواسب القرون الخالية، والمدينة الجديدة ومشاكل الهجرة اليها والمتناقضات الاخلاقية فيها. اليك هذا فانت فيه المختص ولن يتصدى لك أحد فيه. اما الادب فقد تعوم فيه على السطح. فتأن ياعزيزى واحذر من زلات القلم واللسان واتهام النقاد وسوق الكلام كوماً بقرش...".

إنى لأجد شبهاً كبيراً بين مقال الدكتور الزبيدي ومقال الدكتور محي الدين. فكلاهما يطلبان مني أن أقصر بحوثى على القضايا الاجتماعية وحدها فلا أتعرض للقضايا الادبية. والغريب أنهما بالرغم من ذلك لايترددان أن يبحثا فى القضايا الاجتماعية متى شاءا.

واحيل القارىء الى ما كتبه الدكتور الزبيدى في جريدة الاخبار قبل عام، حيث تعرض الى نقد كتاب "مهزلة العقل البشرى" وصار يخوض في بحث الطبيعة من الناحية الاجتماعية ويفنّد اقوالي فيها تفنيداً عجيباً. ثم عطف على ذلك فقال:

"لست مختصاً بعلم الاجتماع، ولكنى أعتبره مادة أساسية فى اختصاصي الأدبي. فأدب العصر يتجه نحو الواقعية، أي إلى مجتمعه، فيتأمل مشاكله ويستقرىء أهدافه ويحاول أن يكيِّف إنتاجه الأدبى على هذه الاسس زيادة على العنصر الضروري للأدب والإنشاء وأعني الجمال الفني. وقد رأيت من واجبي كمشتغل بالأدب أو قل بهندسة النفوس أن أقاوم مثل هذه الآراء...".

وختم الدكتور الزبيدي نقده لكتاب "المهزلة" قائلا: بان الكتاب يجب أن يكتب عليه مثلما يكتب على بعض الافلام السينمائية: "ممنوع على الاحداث".

يخيل أن الدكتور الزبيدي والدكتور محي الدين يذهبان مذهب زميلهما الذى

اسلفت ذكره فى اول هذه المقالة. فهم يرون بان الاديب يستطيع ان يكتب في كل موضوع، وان يتدخل فى كل علم. اما الادب فى نظرهم فيجب ان يبقى محتكراً لهم ولا يجوز ان يكتب فيه غيرهم.

إنهم يذكرونى بأمر ذلك الصياد الذى اشترك مع زميل له ضعيف فى صيد أرنب وغزال، فقال له يقاسمه: "اذا أردت الارنب فخذ الارنب، واذا اردت الغزال فخذ الارنب" .

وتلك إذن قسمة ضيزى!

المقالة الثانية

مشكلة تبسيط اللغة

انقل للقارىء فيما يلي واحدة من مقالات الدكتور محي الدين المنشورة في مجلة "الأستاذ" قبل سنتين.

قال الدكتور:

" وقيام أي رابط اجتماعي جديد مقام رابط اجتماعي سابق، وخروج أى مجتمع على روابطه القديمة يعنيان وبخاصة في نظر الخارجين عليها أن الرابط القديم لم يعد صالحاً للإنتفاع به فى حياة مجتمعهم الجديد، وأن اقتناع الناس باستطلاع الروابط الجديدة إيذان بانتهاء المهمة التى قام من أجلهاالرابط القديم. واصرار بعض أفراد المجتمع على التزام الروابط القديمة ومشايعتها بالقول أو العمل لايعني فى أكرم وجوه التفسير أكثر من الرغبة في الوقوف بالمجتمع عند حياته الاولى التى صلح لها الرابط القديم، أو تحوير الرابط وتفسيره تفسيراً يخرج به عن أن يكون الرابط القديم نفسه، بما يدخل عليه من أساليب التغيير والتحوير والمسخ فى اغلب الاحوال، وفي مثل هذا الحال ينتهون الى ما انتهى اليه دعاة الرابط الجديد من الانصراف عن الرابط القديم على وجه من الوجوه" .

يبدو أن الراي الذي جاء به الدكتور محي الدين قبل سنتين يناقض الرأي الذى جاء به فى مقاله الاخير المنشور في جريدة البلاد، فلقد كان بالأمس يندّد بالجامدين الذين يحاولون إبقاء القديم على قدمه فى الامور الاجتماعية. وهو اليوم يدافع عن الادب العربي القديم ويتعصب له.

ترى هل بدلّ الدكتور رايه خلال السنتين؟ أم أنه يعتبر رأيه الاول صحيحاً فى الامور الاجتماعية وحدها، ولايصح فى الامور الادبية؟

تيسير لغة الكتابة:

كنت قد دعوت في مقالاتي السابقة الى تيسير لغة الكتابة والى تجريدها من الزخرفة والحذلقة اللتين اتصف بها الأدب العربي القديم. فنحن الآن نكتب للجمهور، لا للطبقة الخاصة. والحياة الجديدة تقضي علينا أن نغيّر من اسلوب لغتنا كما غيّرنا من اسلوب مساكننا وملابسنا وغيرها.

وهنا ياتى الدكتور محي الدين فيقول بأن هذه الدعوة ليست جديدة، فقد جاء البلاغيون قبل الف سنة. وهو يعتبر ذلك من أبجديات علم البلاغة. ولكنني في زعمه جاهل بهذا الفن حتى صرت أخبط فيه خبط عشواء والقي الكلام فيه جزافاً.

لست أريد أن أتباهى بنفسى فادعيَ المعرفة التامة بجميع ما جاء في علم البلاغة، وفي العلوم اللغوية الاخرى، من قواعد عظيمة. ولكن الذى أعرفه أن كثيراً من إخواننا الادباء يستهجنون اللغة الواضحة المبسطة ويعدونها من طراز اللغة العامية المبتذلة. وهؤلاء منتشرون بيننا يصدعون رؤوسنا كل يوم بشتائمهم.

كتب أحد هؤلاء في جريدة الحرية قبل أيام كلمة يعرِّض فيها بكاتب هذه السطور ويشتمه لانه يدعو الى تيسير اللغة وتبسيطها. قال: "إن الدكتور على الوردى بإصراره على الدعوة الى الاساليب المبسطة إنما يدافع عن نفسه ويحمي بذلك أسلوبه العاطل عن الجمال والفن ...نتيجة عجز وضحولة فى التفكير" .

وكتب مرة أخرى متسائلاً: فهل يبقى الدكتور الوردى مُصّراً على رأيه الذى أصبح مضحكاً يثير التندر والفكاهة في كل مكان...حتى أصبح يستحق الرافة كما جاء في مقال الدكتور عبد الرزاق محي الدين ...أما إذا كان محصول الدكتور على الوردى فى فهم اللغة العربية لايرقى الى أكثر من مستوى ما يدعو إليه فله عذره الواضح على أن لايذيعه وينشره بين المثقفين الذين يقدرون جمال التعبير فى ادبناالحديث....وهو الفارق بين طبقة الاميين والمثقفين .

والغريب ان الكاتب هذا يقول عني أني لا أتحرج من المناداة علناً بإتخاذ العامية لغة الكتابة. ولما سألته كيف جاز له أن ينسب لى رأياً لم أقل به، أجاب: بأني ما دمت أدعو الى تبسيط اللغة فمعنى ذلك أني أدعو الى اللغة العامية.

لم أجد فى جواب هذا الرجل غير السكوت. وقد كتب الله علينا ان نعيش بين أناس لايختلفون عن هذا الرجل كثيراً، ولابد لنا من السكوت عندما ينطقون أو لاينطقون.

عتاب..

ينتقد الدكتور محي الدين دعوتي الى تبسسيط اللغة بحجة انها دعوة قديمة مضى عليها الف سنة. ولست ادري ماذا يقول عن هؤلاء الذين لايزالون يدعون الى اللغة المعقدة والاسلوب الرنان بالرغم من وجود تلك الدعوة الألفية؟ أما كان الأجدر به أن ينتقدهم بدلاً من ان ينتقدني، وأن يرشدهم الى كنوز البلاغة القديمة بدلاً من إرشادي؟

لعلّه يقول إنهم قليلون بالنسبة الى غيرهم من الأدباء. وهذه مسألة فيها نظر. والذى الاحظه فيهم انهم قليلون وكثيرون في آن واحد. فنحن نستطيع أن نعدّهم قليلين اذا اخذنا بنظر الاعتبار ما يخرج الى الاسواق من نتاج أقلامهم. والواقع انهم من اقل الناس إنتاجاً. والسبب فى ذلك راجع الى نفرة القارىء منهم ومن تحذلقهم اللفظى الذى لايحوى من المعنى الا قليلا.

إنما هم فى عين الوقت كثيرون، إذ هم منتشرون فى كل مكان، ولهم الصوت المعلى فى كل مجلس يرتادونه. ويصح القول إنهم يتكلمون كثيراً وينتجون قليلاً وهاهم اولاء قد ملأوا الدنيا شغباً وصخباً، وجعلوا من انفسهم نقاداً يصولون بشتائمهم فى كل ميدان، ويهاجمون بها كل من يكرهونه أو يحسدونه.

المواعظ البلاغية:

لست انكر ما جاء فى كتاب البلاغة القديمة من دعوة الى تبسيط الاسلوب وتوضيح المعنى. ولكني اعتبر هذه الكتب مثل كتب المواعظ الدينية، إذ هى مملوءة بالتعاليم والارشادات الفخمة، والناس يقرأونها او يستمعون اليها صباح مساء دون ان يتأثروا بها فى حياتهم العملية.

الناس فى حقيقة امرهم لا يتأثرون بما هو مسطور فى الكتب القديمة. انما هم يتأثرون بالقدوة التى يرونها فى محيطهم الاجتماعي. فاذا وجدوا اديباً ينبغ من بينهم فيحصل على المنزلة العالية، حاولوا ان يقلّدوه بالرغم من جميع التعاليم التى سطرّها القدماء.

وهذه حقيقة اجتماعية لااظن الدكتور ينكر صحتها. وهى تعلل ذلك الإنهماك

العجيب فى الصناعة اللفظية التى طغت على الادب العربى خلال القرون البائدة. الم يكن بين الادباء من قرأ علم البلاغة حينذاك؟

الظاهر انهم قرأوه ثم أوّلوه كما يشاؤون. ومثلهم فى ذلك كمثل ارباب العمائم الذين يأوّلون القرآن كما يشتهون ويفسرونه كما توحى به تقاليدهم وعقائدهم الموروثة.

ان كتب البلاغة القديمة لم تنفع الناس بالأمس، وهى كذلك لاتنفعهم اليوم، والادب العربى الحديث لم يتطور من جراء التعاليم المحفوظة فى تلك الكتب. إنما هو يجري فى الطريق الذى يمهده اولئك الأعلام من المجدِّدين، اذ هم يخرقون بضرباتهم المبدعة حجب التقاليد، حتى اذا نجحوا سار الناس وراءهم من حيث يريدون او لا يريدون.

وقد قيل فى المثل العربى القديم: "القافلة تسير والكلاب تنبح".

بين العامية والفصحى:

يتهمنى الدكتور محي الدين بانى ادعو الى استعمال اللغة العامية فى الكتابة. ولكنه يقدم إتهامه بكلمة "لعل" لكيلا يقال عنه إنه يلقي الكلام جزافاً. فهو يقول عني: "لعل الدكتور يريد بالتيسير والتسهيل: التسهل والترخص، والبلوغ بالكلام حد العامية حتى يعود في متناول من لم يحسن الفصحى في قليل أو كثير".

إني أرضى أن يسوق مثل هذه التهمة رجل من طراز ذلك الكاتب الشاتم الذى اشرت الى بعض شتائمه آنفاً. ولكني لا أرضى أن يأتى بها اديب كبير من طراز الدكتور محي الدين.

ارجو من الدكتور ان يخبرنى متى سمع منى او قرأ لى قولاً ادعو به الى اللغة العامية أو الى لغة قريبة منها.إن الذى ادعو اليه فى الحقيقة هو أن نجرِّد لغتنا من الكلمات الغامضة والمترادفات التى لا فائدة منها. وهذا هو ماأسير عليه فى جميع كتاباتى ومحاضراتى قدر الامكان.

إنى لا احب ان يحمل القارىء مع كل كتاب يقراه قاموسا او معجما يرجع اليه

فى كل جملة لكى يفهم ما خرج من بطن الكاتب فيها.فوقت القارىء اليوم اضيق من ان يبذره فى ذلك. ولإن نحن اصررنا على التعالى عليه باسلوبنا اضطر الى تركنا والى البصاق علينا.

ويجب ان لاننسى ان هناك فرقاً كبيراً بين اللغة المبسطة واللغة العامية من الناحية الاجتماعية. فاللغة العامية لا يفهمها جميع الناطقون بها. اما اللغة الفصيحة المبسطة فهى التى يفهمها جميع العرب فى كل اقطارهم.

والكاتب الذى يريد لكتابته الرواج والنجاح يجب ان يبتعد عن العامية ما امكن. فاللهجات العامية فى بلاد العرب متعددة ومتنوعة. ويكاد كل بلد أن تكون له لهجته الخاصة به. واذا اراد الكاتب ان يستعمل إحدى هذه اللهجات قل قراؤه من اصحاب اللهجات الاخرى، وبار سوقه من جراء ذلك.

ينبغى ان يحمد الكاتب العربى ربه لأنه يملك لغة يـهمها عشرات الملايين من الناس. ومعنى هذا أنه يملك سوقاً كبيراً لبضاعته الادبية والعلمية. ومصلحته تقضي عليه إذن أن يوسع هذا السوق ويستثمره، لا ان يبعثره ويفرط فيه.

التقيت فى مدينة مرسيليا ذات يوم برجلين من ابناء الجزائر.وكانا اميين لايفهمان لغة الكتابة. فلم أستطع أن أتفاهم معهما وحسبتهما يتكلمان بلغة غير عربية. وشهدت فى يوم آخر رجلاً عراقياً يتجول فى شوارع القاهرة، وهو لايفهم الناس لا يفهمونه، كانه يتجول فى شوارع هلسنكيفورس.

الذى نرجوه من أدبائنا أن يدركوا ما عليهم من واجب تجاه هذا الوضع الغريب. ان عليهم أن يبسّطوا لغتهم المعقدة لكى يجعلوها فى متناول أبناء العروبة فى كل مكان.

إن اللغة ركن من اركان القومية العربية الطالعة. فهى الرباط الذى يجعل العرب فى شتى أقطارهم يشعرون بأنهم أمة واحدة. ومن الصعب ان يتحد العرب بعواطفهم واقطارهم قبل أن تنتشر بينهم لغة مبسطة يستطيعون التفاهم بها. والظنون أن العرب سائرون فى هذا السبيل سيراً حثيثاً، رغم أنف المتحذلقين!

الاسلوب الصحافى:

مما تجدر الاشارة اليه أن الصحافة العربية قد ساهمت مساهمة فعالة فى تبسيط اللغة وتوضيحها. وسبب ذلك انها تتبع فى الكتابة الاسلوب التلغرافى على حد تعبير الاستاذ سلامة موسى.

اساس الصحيفة هو الخبر المثير. وهى تحاول ان تعطيه للقارىء بإختصار وبساطة، لكى يفهمه القارىء حالما يقع نظره عليه. ولهذا فهى تتجنب اللف والدوران او استعمال الترادفات المتعددة فى المعنى الواحد، كما يفعل بعض اخواننا من الادباء سامحهم الله.

ويخيل لى أن الدكتور محي الدين مستبشر بشيوع هذا الاسلوب الصحافى فى البلاد العربية. فهو يقول: "وهذه الجرائد العربية والمجلات والكتب الادبية منذ خمسين سنة تحرر الموضوعات المختلفة فيها بلغة سهلة: وبعبارة واضحة، وبتراكيب ميسرة، لم يشك احد فيها غموضاً او عسراً، ولم تستعص على القارىء اذا كان متوسط الثقافة".

والذى اريد أن الفت نظر الدكتور اليه أن هذا الاسلوب الواضح الميسر الذى استبشر به لم ينشأ بين العرب دفعة واحدة، ومن غير مكافحة ونضال. فقد بدأ به اول الامر نفر من الكتاب، وقاسوا فى سبيله عناءاً كبيراً. ولا يزال النضال مستمراً.

من المؤسف أن نجد بعض ادبائنا باقين على رايهم القديم في وجوب الارتفاع باسلوب الكتابة فوق مستوى الجمهور. وهم ينعون على الصحافة لغتها المبسطة. وقد أصبح الاسلوب الصحافى عندهم ذماً يتقززون منه. فاذا ارادوا الانتقاص من قيمة أحدهم قالوا عنه انه يكتب بلغة اهل الجرائد. وقد نال كاتب هذه السطور من النقد فى هذا الشأن قسطاً كبيرا كما هو معلوم لدى الدكتور الكريم.

والادهى من ذلك ان يثور هؤلاء فى وجه كل من يدعو الى تبسيط الاسلوب متهمين إياه بمحاربة القومية. وأحسب انهم أولى بهذه التهمة منه. فهم اذ يدعون الى الاسلوب المعقد الرنان، إنما يدعون من حيث لايشعرون الى عرقلة نشوء اللغة

الموحدة التى يستطيع ان يتفاهم بها العرب فى شتى اقطارهم، ويتبادلون بها المنافع والافكار.

إنهم كتلك الدبة التى ارادت أن تطرد الذباب عن وجه صاحبها، فقذفت وجهه بالحجر وقضت عليه. هى لا تدرك أن الذباب اقل ضرراً بصاحبها من الحجر.

المقالة الثالثة

المعانى والبيان

معركة جانبية:

اثار مقال الدكتور محي الدين حماس الاخ الفاضل عبد القادر البراك، فنشر فى جريدة الاخبار كلمة مقتضبة هاجمنى فيها.

والاخ البراك يردد صدى ما قاله الدكتور عنى، فهو يصفني بانى قليل الاحاطة بقيمة الآثار الادبية، وإنى لا افرق بين علوم البيان والبديع والبلاغة، ولهذا فإنى فى زعمه لااصلح للنقد الادبى علي وجه من الوجوه.

وينهى البراك كلمته قائلاً بانى انهج فى النقد نهج الدعاية على الطريقة الامريكية، ثم يقول: وعفى الله عن الحضارة الامريكية فكم وهبتنا من طرائفها وفرائدها من امثال الدكتور الوردى .

الغريب أن يتهمنى الاخ البراك بالنزعة الامريكية، بينما يتهمنى زملاء له بالروسية. وهناك من يتهمني ايضاً بانى من انصار "لقلق الكنيسة" . ولست ادرى متى يتعلم إخواننا أن يتجنبوا ذكر القضايا الخاصة اثناء خوضهم فى القضايا العامة؟!

يقول البراك انى نشأت فى اول امري تحت اروقة المساجد. ولعله يريد ان يذمنى بهذا القول. واذا كان الامر كما قال فكيف تأتى له ان يجزم بأني لا افرق بين علم

البيان والبديع والبلاغة، مع العلم ان اروقة المساجد مملوءة بهذه العلوم وبالجدال العنيف حولها.

لست ادعئ بأنى أعرف هذه العلوم كما يعرفها الاخ البراك أو الدكتور محي الدين. ومع ذلك أستطيع أن أقول بأنى بدأت حياتى الدراسية بهذه العلوم، وعانيت ما عانيت. ولا يهمنى بعد ذلك أن أكون قد درستها فى أروقة المساجد أو تحت أشجار الزيزفون.

ولا أكتم القارىء أنى نسيت اليوم كل ما تعلمته من تلك العلوم العتيقة. وكان من الخير لى نسيانها. فهى فى رايى تضر الكاتب أكثر مما تنفعه.

الكتابة فن كسائر الفنون. والاجادة فيها تنتج عن المران والموهبة أكثر مما تنتج عن حفظ القواعد والتزام القيود.

علم البيان:

يؤكد الدكتور محي الدين ان كتاباتى حافلة بانواع البيان المختلفة من حيث لا أدرى. ففى رأيه أن جهلى بعلم البيان جعلنى اقع فى مصيدته من حيث أظن انى متحرر منها.

وهو يزعم أن كل الفرق بينى وبين عارفي فن البيان هو أنهم يتبعونه فى التعبير عن بينة ومعرفة، أما أنا فأسير فيه "عليك يا الله!" إذا صح ما قاله الدكتور عنى فإنى أفتخر به. فخير لى أن أكتب عن سليقة من أن أكتب عن تصنع وتكلف.

وإذا جاز للدكتور أن يذمنى بهذا فالأولى به أن يذم عرب الجاهلية إذ هم لم يتعلموا قواعد النحو، وكانوا مع ذلك من أصحُ الناس اعرابا.

الأدب انبثاق من أعماق النفس. ولو انه قام على اساس القواعد المحفوظة لصار علماء البيان والبلاغة من أعظم الادباء. ومن الممكن القول بأن التزام القيود فى الادب مضر، اذ هو يربك القريحة ويعرقل تيارها الفياض.

علم المعانى:

ويقول الدكتور محي الدين: "ان الدكتور الوردى إذ ينكر أثر علم المعانى كمن

ينكر اثر الهند سة فى البناء، فيدعو الى الاستغناء عن فن الهسسة بدعوى ان الانسان حفر كهوفه قبل ان يعرف هذا العلم، وان النحل يبنى خلاياه بمحض الفطرة."

اود ان اسأل الدكتور هنا فأقول: أكان أدباء العالم الكبار مطلعين على علم المعانى حين انتجوا تلك الروائع الادبية الكبرى؟

اذا كان أثر علم المعانى فى الأدب كأثر الهندسة فى البناء، كما يقول الدكتور، فلننبذ إذن كل ما انتجه الادباء العظام الذين لم يدرسوا علم المعانى. ذلك ان أدبهم لم يقم على اساس صحيح من الهندسة الفنية، بل كانوا يجرون فيه على سليقتهم اسفى عليهم!

لاعتقد ان هناك فى اللغات الحية علماً يسمى علم المعانى.إنما هم يدرسون بدلاً عنه معاني الحياة المحدقة بهم فيستخرجون منها روائع الادب، كل على قدر فهمه وعبقريته.

الضوابط الذهنية:

يقول الدكتور محي الدين: "فليس الاستهانة بأمر علم المعانى الا استهانة بالضوابط الذهنية لدى الانسان. فهل يرضى الدكتور لنفسه أن يدعو الى نبذ دراسة الضوابط الذهنية لدى ناقدى الآثارالتعبيرية؟".

إن رأي الدكتور هذا يشبه راي اصحاب المنطق القديم الذين كانوا يعتقدون بأن قواعد المنطق هى التى تعصم الذهن من الخطأ. ثم ظلوا يتجادلون ويتخاصمون الاف السنين، دون ان يسلم بعضهم بصحة ما يراه البعض الآخر. فأين ذهبت الضوابط الذهنية اذن؟!

ليس هناك ضوابط ذهنية عامة يتفق عليهاالناس جميعا. ولو كان فى علم المعانى مثل هذه الضوابط لاستراح العرب منذ زمان بعيد ولما ظلوا يخبطون فى تقدير الادب خبط عشواء.

ولو كان شعراؤنا القدامى يلتزمون هذه الضوابط لما قلبوا معانى الحياة ذلك القلب العجيب فجعلوا الظالم عادلاً والدنيء كريماً والفتاة غلاماً!

طبيعة الادب الحي:

ان الادب الحي الذى يبقى على مر الايام لايعرف علم المعانى او علم البيان او علم البلاغة، ولا يفهم القواعد العويصة التى يصطنعها العاجزون المتحذلقون.

مصدر روعة الادب وخلوده أنه يلاقي صدى فى نفوس الناس ويضرب على الاوتار الحساسة من قلوبهم.

إنه كما قلنا انبثاق من أعناق النفس. والذى يخرج من القلب يدخل الى القلب كما قيل فى المثل القديم.

ونحن نسيىء الى طلاب الادب كل الاساءة حين نملأ أدمغتهم بالقواعد العويصة ونفرض عليهم التزامها فيما يكتبون ويخبطون. فلا يكاد احدهم ينهى تحصيله الادبى حتى يمطر الناس بالحذلقات الفارغة التى يحسبها من روائع الادب الرفيع. وتراه يمط شفتيه ويلوى لسانه وينفخ اوداجه لكى ياتى بالقول على منوال ما جاء به الاقدمون. واذا وجد الناس مشغولين عنه بهمومهم أخذ يعنفهم ويشتمهم، حيث يصبحون فى نظره اوباشا لا يعرفون قيمة الادب الرفيع.

إنه يتنطع ويتقعر، وكأنه يريد ان يظهر للناس مبلغ علمه باللغة وفنونها، بينما الناس يريدون أن يستفيدوا ويحصلوا على فكرة جديدة، وليس لهم الوقت ليتلذذوا فيه بتلك الترهات الجوفاء.

أنقل للقارىء فقرة وجدتها فى مقدمة أحد الكتب الادبية، ليرى رأيه فيها. قال الكاتب:

" ... فلم يكن هذا الكتاب - أو أكثره - إلا لوناً من ألوان الحديث مع النفس حين يخلو الناس إلى نفوسهم أو حين تخلو نفوس الناس إليهم فترفع بينها وبينهم من هذه السجف التى تسبلها الحياة واحداثها بين الناس ونفوسهم فتصرف نفوسهم عنهم او تصرفهم عن أنفسهم حتى اذا عادوا اليها وجدوا عندها هذا اللون من ألوان حديث النفس حين تسقط عنها اوضار الحياة وحين توضع عنها هذه السجف التى تسبلها عليها احداثها وخطوبها.... "

ماذا يفهم القارىء من هذه الفقرة؟ اما انا فاعترف بانى لم افهم منها شيئا.

وكنت اشعر عند قراءتها ان كاتبها يريد ان يتباهى بادبه الرفيع، كما هو شان كثير من ادبائنا سامحهم الله.

هم يريدون المباهاة، ونحن نريد الفائدة. وشتان ما بيننا وبينهم!

العلم والادب:

يعتقد الدكتور محي الدين ان علوم البيان والمعانى والبلاغة ضرورية لطلاب الادب. وانا اعتقد بأن العلوم الاجتماعية والنفسية اجدى لهم من هاتيك العلوم العتيقة التى تقيد العقول وتسد عليها منافذ الابداع.

ان الاديب يكتب للناس لا لنفسه، ومن الضرورى له اذن أن يفهم طبيعة هؤلاء الناس الذين يكتب لهم. اما اذا بقى فى برجه العاجى يدرس القواعد التى جاء بها الاسلاف قبل الف سنة، فسوف لا يجد له بين الناس سوقاً، وسيبقى يشتم الناس على نفرتهم من "الادب الرفيع ".

يمكن تشبيه الاديب القواعدى بذلك العابد الذى يوسوس فى صلاته. فهو ينهمك بكلمات الصلاة وكيف يخرج الحروف من مخارجها، فينسى ربه الذى يصلي له. ولو انه اطلق نفسه على سجيتها لكان اقرب الى الله وازكى صلاة.

تجربة عملية:

يروى الاستاذ سلامة موسى ان جماعة من طلاب احدى الجامعات الامريكية قصدوا المانيا للدراسة.فأخذ قسم منهم يتخصص فى اللغة والادب، وأخذ القسم الاخر يتخصص في العلوم الطبيعية والحياة. وبعد عام من الدراسة اتضح أن الذين قضوا وقتهم في تعلم اللغة لم يحسنوها كما احسنها الذين قضوا وقتهم في دراسة العلوم.

ونستطيع أن نشهد مصداق هذه التجربة حين نقارن بين اسلوب أرباب الفنون اللغوية واسلوب غيرهم من الباحثين في شؤون الحياة المختلفة. فدراسة المواضيع العملية تخصب الذهن وتجعله ابرع بياناً وأدق تعبيراً. أما دراسة الفنون اللغوية فهى تملأ الذهن بالكلمات التى لا تتفاعل مع المجتمع وعلومه وفنونه، ولهذا يكون

صاحبها كثير الحشو فى كلامه، اذ هو يلف ويدور دون ان يعطى صورة دقيقة لما يريد، وكأنه يدور به فى حلقة مفرغة.

ولست أعنى بهذا ترك الدراسة الادبية بتاتاً وإحلال الدراسة العلمية محلها. فمما لاشك فيه ان الادب غير العلم، وأنه يحتاج الى دراسة خاصة به. ولكن الذى اريد ان أقول هو أن نمط الدراسة الادبية الذى يسيطر على كلياتنا هو غير مجدٍ ولا صحيح.

كيف تكون اديباً؟

قد اعتدنا أن نقول لطلاب الادب عندنا انهم قادرون ان يكونوا ادباء اذا سعوا وثابروا واتقنوا القواعد والفنون اللغوية. ومعنى هذا اننا نعلمهم المبدأ القائل: "من جد وجد و كل من سار على الدرب وصل".

وقد ثبت الآن ان هذا المبدأ لايصح الا بشروط، وأهم هذه الشروط هو ان يملك الطالب الموهبة الخاصة بالموضوع الذى يسعى اليه.وهذا يصدق فى الادب كثيراً. فالذى لا يملك الموهبة الادبية لايستطيع ان يكون اديباً حتى ولو حفظ علوم اللغة من أولها الى آخرها.

ولعل هذا من اسباب الرقاعة الغالبة على بعض أدبائنا. إنهم طلبوا الادب وأصروا عليه دون أن تكون لهم موهبة تمكنهم منه. وربما كانت مواهبهم تخولهم أن يكونوا نجارين او خياطين بدلاً من أن يكونوا أدباء.

الاطلاع والمثابرة:

وبعد أن يجد طالب الادب الموهبة فى نفسه، ينبغى أن يقرأ ما أنتجه الادباء المبدعون قبله. وكلما كثر اطلاعه فى هذا المجال كان اقدر على النضوج فيه. وتأتى عند ذلك الممارسة العملية حيث يحاول الطالب بها أن يخرج حظه فى النشر. ولا بد له أن يذوق الفشل مئات المرات حتى ينجح...

وهنا تظهر مشكلة الناشئين من الادباء. فكثيراً ما نراهم يشكون من أصحاب المجلات والصحف، ويتهمونهم بأنهم لايساعدونهم على نشر ما تجود به أقلامهم ولا يشجعونهم عليه.

رايت احد هؤلاء ذات يوم وهو يسبّ الصحافة. ولما سالته عن السبب قال بانه ارسل عدة مقالات الى المجلات والصحف المختلفة فلم تنشر منها واحدة. وكيف يمكن ان ينبغ الاديب اذا وجد نفسه محاطاً بمثل هذا التثبيط الشامل؟

هذا ما قاله صاحبنا، وهو يظن ان سر نبوغ الاديب كامن فى تشجيع الناشرين له. إنه لايدرى بان الادباء العظام قد عانوا فى باديء امرهم من التثبيط أشد مما عانى. ولكنهم كافحوا وثابروا حتى وصلوا إلى ما وصلوا اليه.

ولو وجد الاديب التشجيع الكثير من اول امره لما صار اديباً.إنه يجب ان يرمي نفسه فى بودقة الحياة لينصهر بها ويبرز جوهره ولولا هذه البودقة لظهر لدينا من الادباء الوف مؤلفة، ولوصل عياطهم الى عنان السماء.

الخلاصة:

على طلاب الادب أن يفهموا أن الادب هو، كأي فن من فنون الحياة، يحتاج الى الموهبة اولاً، وإلى الاطلاع ثانيا، وإلى المثابرة ثالثاً.

هذا هو الطريق الذى سار فيه الادباء الخالدون. وليس هناك طريق آخر سواه.

أما تعلم القواعد والعلوم اللغوية العتيقة، فلا فائدة منها لطالب الادب، لعلها تضره وتفسد موهبته.

ان من يريد ان يكون اديباً بدراسة تلك العلوم العتيقة هو كمن يريد أن يكون طبيباً بقراءة كتب جالينوس والرازى وابن سيناء، ولا بد أن يكون مصيره كمصير من يتحدث عن البلغم والصفراء فى عصر البنسلين.

المقالة الرابعة

الشعر والشذوذ الجنسي

الشعر والتغزل بالغلمان:

من الصفات التى تميّز بها الشعر العربى القديم التغزل بالمذكر. وفى رأيي أن من اهم الاسباب فى ذلك، إن لم يكن اهمها، هو شيوع الشذوذ الجنسي فى المجتمع العربى فى عهوده المتأخرة.

وهنا يأتى الدكتور محي الدين فيقول بأن الشذوذ الجنسى لا دخل له فى الأمر. ففى رأيه أن غلبة ضمير المذكر على الشعر العربى له سببان!

اولهما: النزعة العرفانية الصوفية، وهذه تقتضي تذكير الضمير. وثانيهما: تحاشي ضمير المؤنث خشية ان يتهم الشاعر فى وصف إمراة بعينها، الامر الذى يتحاشاه الشعراء تخوفاً او تأثماً.

وهذا الراى من الدكتور قد يصح فى حدود معينة، إنما هو غير صحيح بمعناه الشامل. فالدكتور ينفي أن يكون للشذوذ الجنسي اية علاقة بشيوع الغزل المذكر فى الشعر العربي. ولو انه جعل الشذوذ الجنسى سبباً ثالثاً بالإضافة الى السببين اللذين ذكرهما،لكان مصيباً الى حد كبير.

ليس من الممكن ان ننكر وجود اسباب متعددة لشيوع الغزل المذكر بين الشعراء. ولكننا مع ذلك لا نستطيع ان ننكر اثر الشذوذ الجنسي فيه. فلقد كان هذا الشذوذ منتشراً بين الناس، ولا بد ان يظهر اثره فى الشعر على وجه من

الوجوه. ولا اقصد من هذا ان الشاعر الذى يتغزل بالمذكر لابد ان يكون مصاباً بالشذوذ الجنسي.إنما اقول أ، إنتشار الشذوذ بين الناس قد يؤدى بهم الى استلطاف الغزل المذكر والى تشجيع الشعراء على النظم فيه.

ومعنى هذا أن إنتشار الشذوذ يخلق جواً مشجعاً للغزل المذكر. والشاعر مضطر ان يجاري هذا الجو قليلاً او كثيراً، اذا أراد لشعره الذيوع والرواج.

يقول الدكتور إن كثيراً من الشعراء كانوا يقصدون الأنثى حين كانوا يتغزلون بالذكر. وهو يأتى بأمثلة على هذا من شعراء عصرنا. فهو يذكر ابياتاً من شعر شوقى والشبيبى ومحمود طه الشرقى، وكأنه يتحدّانى متسائلاً: "أكان هؤلاء يتغَزلون فى شعرهم بالغلمان؟ "

الجواب على ذلك: كلا وألف كلا! إن هؤلاء الأفاضل كانوا يقصدون بغزلهم غير الغلمان طبعاً. ولكنى أظن انهم لو كانوا فى مجتمع آخر لكان غزلهم بالأنثى صريحاً. وكأنى بهم آثروا إستعمال ضمير المذكر فى شعرهم لأنهم وجدوه الطف من ضمير المؤنث فى ذوق كثير من الناس.

ليس العيب عيبهم، إنما هو عيب المجتمع الذى يعيشون فيه، او هو عيب التقاليد البالية التى ورثها المجتمع من اسلافه البائدين. ولو أن هؤلاء الشعراء ظهروا بين العرب فى القرن الواحد والعشرين لغلب على شعرهم التغزل بالأنثى فى أرجح الظن. فالعرب فى القرن القادم سوف لا يستطيعون التغزل بالغلمان مع وجود الهيفاوات الدعجاوات حولهم فى كل مكان.

ملابسات الضمائر عند العرب:

يقول الدكتور: "إن معاد الضمائر فى الشعر العربى لها ملابسات تخفي على غير ابناء هذا الفن اذا كانوا من نسق الدكتور الوردى.وإستعمال ضمير مكان آخر شىء مألوف مستطرف عند العرب منذ الجاهلية... "

الدكتور يقصد من هذا ان العرب كانوا لا يهتمون بالدقة فى معاد الضمائر. فهم قد يذكرون ضمير المذكر ويعنون به الانثى، او يذكرون ضمير المفرد ويعنون به الجمع، او يذكرون ضمير الجمع ويقصدون به المثنى...الى آخره.

وهذا الأمر معروف في اللغة العربية، ذكره الثعالبى فى كتابه "سر العربية" وذكره غيره فى مناسبات شتى. وهو من الأمور التى يعدها علماء الاجتماع عيوباً فى اللغة. فاللغة يجب ان تكون دقيقة فى التعبير عن مقاصدها لكى تؤدى وظيفتها الاجتماعية تأدية وافية.

ومهما يكن الحال فليس هنا مجال التحدث عن هذا الامر. ولعل الاجدى لنا ان نجاري الدكتور فى قوله بأن استعمال ضمير مكان آخر شيء مألوف ومستطرف عند العرب.

وأود بهذه المناسبة ان أسأل الدكتور عن السبب الذى جعل العرب الأولين يتجنّبون الغزل المذكر بالرغم من إعتيادهم على إستعمال ضمير مكان آخر. ونحن نعلم أن شعراء العرب تغزلوا بالأنثى فى أيام الجاهلية وفى عهد الراشدين والأمويين وشطر فى عهد العباسيين، وهم لم يبدأوا بالغزل المذكر الآ فى أيام المغفور له أبى نواس. اكان ذلك محض مصادفة؟ ام كان له سبب آخر؟

يقول الدكتور بأن الشاعر العربى كان يخشى التغزل بالانثى لئلا يدخل عمله فى باب التشبيب والتشهير الذى ينزل بصاحبه جريرة الحد الشرعى، ويثير عليه نخوة أهل الفتاة المتغزل بها.

وهذا رأى من الدكتور أثار استغرابي فالمعروف أن العرب الاولين كانوا أشد من المتأخرين فى غيرتهم على المرأة وفى نخوتهم من اجلها وكذلك كان العرب فى صدر الاسلام اشد التزاماً بحدود الدين ممن جاء من بعدهم.

فهل يستطيع الدكتور أن يقنعني كيف استسهل الشعراء فى ايام الجاهلية وصدر الاسلام أن يتغزلوا بالانثى دون أن يخشوا فيه أحداً، بينما عجزوا عن ذلك فى عهد ابى نؤاس وبعد عهده؟

لماذا؟

ذكر المؤرخون ان ابا نؤاس كان مصاباً بالشذوذ الجنسي الى درجة كبيرة، وكان فى صباه ذا شذوذ سلبي، ثم انقلب فى كبره فأصبح ذا شذوذ إيجابي. ويقال إنه

اعترف بذلك بلا حياء او تاثم.والظاهر ان شذوذه العنيف هذا دفعه الى إبتداع الغزل المذكر فى الشعر العربى لأول مرة فى التاريخ.

ويخيل لى أن الشعراء جعلوا من هذه البدعة الجديدة التى لم يكن لهم بها عهداً.ثم انتظروا قليلا ليجدوا شعر إبى نؤاس رائجاً يتلاقفه الناس ويطربون له. فتهافت الشعراء عليه يقلدونه.

ويصح القول بأن الشذوذ الجنسي أخذ ينتشر بين الناس قبل عهد أبي نؤاس. ولكن الناس كانوا يواربون فيه ويتسترون. ولم يجرا أحد منهم أن يقول عن نفسه انه لوّاط يحب الغلمان. وعلى حين غرة طلع ابو نؤاس عليهم فشق الستار وصرخ فيهم قائلاً: "لماذا هذا النفاق أيهاالناس؟ ".

مثل أبى نؤاس فى هذا كمثل ذلك الزرّاع الذى وجد أرضاً خصيبة مهيأة له، فالقى فيها البذرة. وما هى الاّ مدة قصيرة حتى خرج من البذرة شجرة باسقة وارفة الظلال. ومن المؤسف أن تكون ثمار تلك الشجرة غير صالحة للمجتمع.

كان العرب فى الجاهلية وصدر الاسلام لا يعرفون من الشذوذ الجنسى الا قليلا. فقد كانت إلمراة حين ذلك سافرة تختلط بالرجال وتصحبهم فى الحروب. ثم بدأت بعدئذ تتحجب شيئاً فشيئا وتنفصل عن عالم الرجال، حيث اصبح البيت عالماً خاصاً بها، تحيى وتموت فيه.

كان لظهور الحجاب فى الاسلام عوامل اجتماعية متنوعة لامجال هنا لبحثها او تعدادها.ومن الممكن القول على أي حال أن الشذوذ الجنسي يزداد بين الناس بإزدياد الحجاب فيه. وهذه حقيقة اجتماعية لا أظن الدكتور محي الدين قادراً على تفنيدها بسهولة.

ونحن مع هذا لا ننكر وجود الشذوذ الجنسى فى كل مجتمع على وجه الارض، الا انه يزيد وينقص تبعاً لما فى المجتمع من عوامل مساعدة له. ومن اهم تلك العوامل الحجاب والانفصال بين الجنسين، كما لايخفى.

رأى الدكتور محى الدين:

يقول الدكتور: " ولست اريد ان أعصم المجتمع العربى والاسلامى عن شذوذ لا

تخلو منه امة ولكننى اصحح خطأ يردده السذج من دارسي الادب وناقدي الشعر، ويهوّله المتسرعون من مدعى الدراسات الاجتماعية ليكوّنوا منه آراء متطرفة تستثير فضول الناس ."

الدكتور يعتقد بأن الشذوذ الجنسى لم يكن فى المجتمع العربى والاسلامى باكثر مما كان فى المجتمعات الاخرى. وهذا رأى لا اظن علماء الاجتماع يوافقونه عليه.

وارجو من الدكتور ان لاينسى بان الشذوذ الجنسى اصبح من المواضيع العلمية التى يصعب التهويل او التهريج فيها. وهو اليوم يخضع للإحصاء والدراسات الموضوعية اكثر مما يخضع للآراء الذاتية التى اعتاد بعض ادبائنا ان يطلقوها على الناس متى شاؤوا.

ويستطيع الدكتور أن يتجول فى المناطق التى يشتد الحجاب فيها ليرى المدى الذى وصل اليه الشذوذ الجنسى فيها. وله ان يتذكّر كيف انتشر الشذوذ عندنا فى العهد العثمانى. فلقد كان الرجل لا يتحرج ان يجلس فى المقهى وغلامه بجانبه يتغنج. هذا بينما كان الواجب على المراة ان لا تخرج من بيتها الا نادراً وان لايرى الناس ظفراً واحداً منها. وكلما كانت المراة اكثر اعتكافاً فى البيت كانت اعظم فضيلة واروج سوقاً فى الزواج.

وكان الرجل يعقد نكاحه على شريكة حياته قبل ان يتمكن من رؤيتها. وعندما تنكشف له الحقيقة المرة بعد ذلك، يلجأ الى الغلمان ليعوّض بهم عما فاته فى زواجه المنحوس. وكانه بهذا يقفز من المقلاة الى النار.

التصوف والغزل المذكر:

يرى الدكتور، كما اشرنا اليه آنفا، ان النزعة الصوفية العرفانية من اسباب غلبة ضمير المذكر فى الشعر العربى. فالمتصوفة يتغزلون بالله واسم الله مذكر لا مؤنث. ومعنى ذلك انهم يحبون الله ولا يحبون الغلمان.

إن هذا الرأى لا يخلو من وجاهة. وهو يفسر لنا كثيرا من الغزل الصوفى. ولكنه مع ذلك لا يكفى لتفسيره جميعا.

المتصوفة بشر كسائر الناس وهم مهما حاولوا ان يفنوا فى ذات الله وان يجردوا

انفسهم من ادران البدن، فانهم لا يقدرون على التخلص نهائياً من طبيعتهم البشرية.

اشتهر المتصوفة فى عهودهم المتاخرة بزهدهم فى النساء. وكان المتزوجون منهم يفتخرون بانهم لا يقربون زوجاتهم إلا لماما. ويحكى عن احد مشايخ الصوفية فى القرن الثالث الهجرى انه عاش مع زوجته خمسة وستين عاما من غير ان يقربها.

وهذا الزهد فى النساء لا بد ان يؤدى بهم، من حيث يريدون او لا يريدون، الى الميل نحو الغلمان. والمعروف عن بعض المتصوفة انهم جعلوا صحبة الغلمان قاعدة فى مذهبهم، كما روى ذلك الحجويرى فى كتابه "كشف المحجوب" .

وحكى القشيرى قصة حلم رآه ابو سعيد الخراز، المتصوف المعروف. وخلاصة القصة ان الخراز راى ابليس فى المنام وهو يمر عنه ناحية. فجرت بينهما المحاورة التالية:

الخراز: مالك؟

إبليس: ايش اعمل بكم، انتم طرحتم عن نفوسكم ما اخادع به الناس.

الخراز: وما هو؟

ابليس: الدنيا...غير أن لى فيكم لطيفة.

الخراز: وما هى؟

ابليس: صحبة الاحداث!

ان لهذا الحلم دلالة نفسية واجتماعية لا يستهان بها. فهو يدل على انتشار حب الغلمان بين المتصوفين، وان الخراز كان يعترف بذلك فى اعماق عقله الباطن، حتى رآه فى المنام. وكثيراً ما تكشف الاحلام عن مكنون النفس البشرية.

رأى ابن الجوزى:

ولابن الجوزى راى مستفيض فى هذا الموضوع جاء به فى كتابه المعروف "تلبيس ابليس" .

يقول ابن الجوزى ان المتصوفة فى صحبة الاحداث على سبعة اقسام:

1 – قوم يقولون بالحلول. وهم يزعمون بان الله تعالى اصطفى اجساما حل فيها بمعانى الربوبية. ولم يابوا كونه حالاً فى الصورة الحسنة حتى استشهدوه فى رؤيتهم الغلام الاسود.

2 – قوم يتشبهوّن بالصوفية فى ملبسهم ويقصدون الفسق.

3 . قوم يستبيحون النظر فى المستحسن، ولهذا جوّزوا الرقص والغناء والنظر الى وجه الحسن. ورووا فى ذلك عن النبى حديثين، جاء فى احدهما: "أطلبوا الخير عند حسان الوجوه" . وجاء فى الثانى: "ثلاثة تجلو البصر، النظر الى الخضرة والنظر الى الماء والنظر الى الوجه الحسن " .

ويقول ابن الجوزى ان هذين الحديثين مكذوبان.

4 . قوم يقولون: "نحن لاننظر نظر شهوة وإنما ننظر نظر اعتبار" . وهناك طائفة منهم تأتى اثناء الغناء بالصبى الامرد فتزينه بالحلى والمصبغات من الثياب والحواشى، وتزعم انها تقصد به الازدياد فى الايمان بالنظر والاعتبار والاستدلال بالصنعة على الصانع. وانما تفعل هذه الطائفة ما ذكرناه بعد تناول الالوان الطبية والمآكل الشهية.

5 . قوم صحبوا المردان ومنعوا انفسهم من الفواحش، اذ يعتقدون ذلك مجاهدة للنفس. يحكى عن احدهم انه كان يصاحب غلاما جميلا لايفارقه، فاذا جاء الليل قام يصلى ثم نام الى جانب الغلام وبعد قليل من الوقت يقوم الصوفى فزعا فيأخذ بالصلاة ثم يعود الى النوم بجانب الغلام. ويفعل ذلك مرارا وتكرارا حتى يسفر الصباح. وعند ذاك يشكر الصوفي ربه لأنه حفظه من المعصية واقتراف الحرام.

6 . قوم لم يقصدوا صحبة المردان وإنما يتوب الصبى ويتزهد ويصحبهم على طريق الارادة. فيلبس ابليس عليهم ويقول: "لا تمنعوه من الخير" . ثم يتكرر نظرهم إليه عن غير قصد حتى يثير فى قلوبهم الفتنة...

7 . قوم علموا ان صحبة المردان والنظر اليهم لا يجوز، غير أنهم لم يصبروا عن ذلك، قال احدهم: "لقد عاهدت ربي أكثر من مئة مرة ان لااصحب حدثاً ففسخها على حسن الخدود وقوام القدود وغنج العيون ..."

* * *

مهما يكن الحال فإننا لا نستطيع ان نحكم على جميع المتصوفة بانهم كانوا يحبون الغلمان او كانوا يلوطون بهم. وربما كان حب الغلمان عند بعضهم عذرياً لا سوء فيه، حيث نشا فيهم من جراء عزوفهم عن النساء وزهدهم بهن.

واذا صح هذا جاز ان نقول بأن شيوع الغزل المذكر فى شعر المتصوفة لم يكن كله ناتجاً عن نزعتهم العرفانية. فربما كان شذوذهم العذرى من أسباب ذلك. والله اعلم.

المقالة الخامسة

بين المحاسن والمساوىء

مزايا الشعر العربى:

يسهب الدكتور محي الدين فى تبيان مزايا الشعر العربى ومنافعه للامة. فالشعر فى نظر الدكتور توراة هذه الامة فى قديمها الجاهلى ومظهر نشاطها الذهنى الوحيد يومذاك. وعندما بدأت الامة عهداً للتاليف ووضع أصول العلوم اللسانية والعقلية فزعت الى الشعر فى تحرير قواعد تلك العلوم، تتلمس فيه المفردة الدقيقة والمصطلح المواتى، وتستخرج منه التقليد الشائع والعرف السائد والاثر المطمور والحدث المجهول. وبعد كل ذلك حين استقر للامة عرفان بمذاهب الفلسفة وأسس علم الجدل والتصوف لم تجد بداً من ان تفزع الى الشعر تستخرج منه الشاهد والدليل والشبيه والنظير...

ثم يضيف الدكتور الى ذلك فيتحدث عنى قائلاً بأن كثيراً من أفكارى الطريفة التى اتحف بها القراء(كذا) انما رجعت فيها الى الشعر العربى واعتمدت عليه. وهنا يسأل: "كيف جاز لى ان ازهد الناس بالشعر واحاول صرفهم عنه وهو الذى أفادنى مثل هذه الفائدة الكبيرة؟"

يسأل الدكتور هذا السؤال ثم يجيب عليه قائلاً: "بأن شهوة الكلام ربما كانت السبب فى ذلك. وقد عجبت حين رأيته يسأل ويجيب دون ان يقف قليلا ليستمع الى ما أقول فى هذا الصدد. فربما كان لى سبب آخر غير هذا السبب الذى اتى به، ولعل لى شهوة غير تلك الشهوة المنحوسة.

موقفى من الشعر:

إنى فى الواقع لا احب ان ازهد الناس بالشعر او اصرفهم عن دراسته فالشعر حقل مهم من حقول المعرفة، ولا غنى للباحث فى المجتمع العربى وتاريخه عن دراسة الشعر. ولكن الذى أريد من الناس هو أن يدرسوه دراسة حياد وإنصاف لا دراسة حب وتعصب.

إذا كان للشعر منافع، فله مضار ايضا. وربما كان ضرره بالامة العربية اكثر من نفعه لها.

لست انكر على اى حال ما احتوى عليه الشعر العربى من حكمة وروعة، إنما لا يجوز ان يمنعنا هذا من النظر فى سخافاته وأباطيله فى الوقت ذاته. إن الشعر كأى شىء اخر فى هذه الدنيا يحتوى على المحاسن والمساوىء معا. وعلى الباحث أن ينظر فيه من كلا الوجهين اذا أراد ان يكون باحثاً حقاً. اما التأكيد على احد الوجهين وإهمال الوجه الآخر، فهو أمر لا تستسيغه طبيعة البحث الحديث.

توراة هذه الامة:

يصف الدكتور محي الدين الشعر بانه توراة هذه الامة فى عهدها الجاهلى، كأنه لا يدرى ان التوراة نفسها لها محاسن ومساوىء فهى سجل لقصص الانبياء ومواعظهم، وهى فى الوقت ذاته سجل خرافات وأوهام ما أنزل الله بها من سلطان.

والدارسون للتوراة فى الجامعات الغربية، لا يتعصبون لها او عليها، انما هم يبحثون فيها بحثاً محايداً ما استطاعوا الى ذلك سبيلا. وبهذا يستخرجون منها العبرة التاريخية التى تنفع الناس. أما كان الجدير بدارسي الشعر العربى ان يتبعوا فيه هذا المنهج العلمى لكى يفيدوا ويستفيدوا؟!

مساوىء الشعر العربى:

الشعر العربى مملوء بالمساوىء. وأستطيع ان أعده بلاءاً ابتليت به الامة العربية فى جاهليتها وإسلامها. وكثيراً ما ينفع البلاء.

وأود ان اذكر هنا بعض هاتيك المساوىء على سبيل الاختصار، لكى أعود فى المقالات القادمة الى شرحها قدر الامكان:

1 - كان الشعر في ايام الجاهلية حليفا للسيف في حروب القبائل ومفاخرتها الرعناء. وكانت القبيلة الجاهلية تحتفل بنبوغ الشاعر كما تحتفل بظهور الفارس صاحب الحسام البتار.

2 . وكان الشعر كذلك حليفاً لعبادة الاوثان، حيث اتخذته قريش دعامة من دعائم نفوذها القبلى وفعاليتها التجارية. ولهذا كان النبى محمد فى بدء دعوته يحارب الشعر كما يحارب الوثنية.

3 . وفى العهد الاموي اتخذ السلاطين من الشعر وسيلة لتخدير عقول الناس وصرفهم عن فهم التعاليم الثورية الكبرى التى جاء بها الاسلام.

4 . وفى العهد العباسي ساعد الشعر مساعدة كبيرة على انشاء قواعد النحو هذه القواعد العويصة التى شلّت العقول وجعلتها تدور فى حلقة مفرغة.

5 . وساعد الشعر فوق ذلك على تدعيم الحكومة السلطانية، حيث كان السلطان ينهب اموال الامة كما يشاء وينفقها على مايشتهى، ولكنه يأخذ قسطاً مما نهب فيعطيه للشعراء. وهؤلاء لا يترددون عند ذاك عن جعل السلطان اميرالمؤمنين وظل الله فى العالمين.

استدراك:

ولا يعنى هذا ان الشعر العربى كله كان متصفاً بمثل هذه المساوىء. فقد ظهر فى الجاهلية شعراء موحدون لعنوا الاوثان ولعنوا قريشاً معها. وظهر في العهد الاموى شعراء يدعون الى الاسلام وينتقدون الانحراف الشنيع الذى طرا عليه. وكذلك راينا فى عهود اخرى شعراء ثاروا على السلطان وجابهوه بما لايرضى.

يقول الدكتور على الزبيدى ان هناك شعراء كثيرين، عاشوا وماتوا دون ان يسجل لهم اثر او تروى لهم قصيدة، وذلك لأنهم كانوا ينحون فى شعرهم منحى مخالفاً للتيار الغالب. ولعل الرواة اهملوهم خوفا من السلطان ومن فقهائه وشعرائه وجلاوزته الواقفين بالمرصاد فى كل مكان.

كل هذا صحيح. وصحيح ايضاً ما نرى فى بعض الشعراء المحدثين من ثورة تكاد تعصف بالظالمين عصفاً. ونحن اذ نعترف بذلك لا نستطيع ان ننسى الصفة

الغالبة على الشعر طوال القرون، تلك الصفة التى جعلت الشاعر العربى يمدح ويذم كما يشتهى من غير اهتمام بما ينتج عن ذلك من ضرر اجتماعي كبير.

شخصية الشاعر العربى:

نستطيع ان نقول بوجه عام ان الشاعر العربى يملك شخصية مزدوجة. فهو يظهر غير ما يبطن، ويقول مالا يفعل. وقد وصف القرآن الشعراء قديما بانهم يقولون مالا يفعلون وانهم فى كل وادٍ يهيمون.

ويبدو أن الدكتور محى الدين يعترف بهذا. فهو يقول: "ان الشاعر العربى كان يتجاوز كثيرا عن عقيدته ومسلكه، ويتحلل من روابطه وأواصره، الى ما تقتضيه طبيعة الشعر من فناء الذاتية وانمحاء الشخصية، لتقوم مقامها الشخصية الفنية فى استيلاء طاغٍ على سائر الجوانب."

والدكتور يدافع عن هذا الازدواج فى شخصية الشعراء فيقول: "انهم أصحاب فنّ لا اصحاب رسالة فى الحياة" . وهو يريد منا ان ننظر اليهم من هذه الزاوية وحدها. وهي الزاوية التى كان ينظر منها الناقدون القدماء الى الشعر والشعراء.

رسالة الفن! هذه الحجة التى يتخذها كثير من الشعراء غطاءً يسترون بها حقيقة انَفسهم. وياليت شعرى ماذا يقصدون بالفن. انهم يركضون وراء الجانزة، فاذا اعطوا منها رضوا واذا حرموا منها سخطوا. ثم يرفعون عقيرتهم بعد ذلك هاتفين بالفَن. يعيش الفنّ!

وهذا يذكرنى بما قرات فى احدى المجلات قبل ايام عن مغنية مصرية، اذ وجدتها تصف نفسها بانها صاحبة فن رفيع ومن دعاة تحسين الاخلاق! . وليس فى هذا عجب، فهى كغيرها من بنى آدم وبنات حواء تسعى وراء مصلحتها الخاصة ثم تلفّ ذلك بالغلاف البرّاق.

ان هذه ظاهرة بشرية عامة تعرف فى علم النفس بنزعة التبرير . فالانسان لا يحب أن يبدو فى أعين الناس على حقيقته، ولهذا فهو يبرر اعماله بالأعذار المتنوعة، فهو تارة يذوب هياماً بالوطن، وهو تارة أخرى يجعل الله من وراء القصد، او هو يقدم نفسه قرباناً فى مذبح الفن — والعياذ بالله.

آلة التصوير:

يقول الدكتور: "ان الشاعر هو كآلة التصوير المحدثة، تقع على مختلف الأشياء فتصورها، سواء عليها ان تقع على ملاك او شيطان."

ولست ادرى كيف كان الشاعر يقلب الاسود ابيض، والظالم عادلاً، والوضيع عظيماً. لا بد ان تكون آلة التصوير مصنوعة على نمط معكوس، او هى من إنتاج جزيرة واق الواق.

كان الجدير بالدكتور ان يشبّه الشاعر بالرسام الذى يصور الاشياء كما يشتهى. فالاشياء تظهر على لوحته جميلة اذا كان فرحاً، وقبيحة اذا كان حزيناً. وسبب الفرح والحزن هو الاصفر الرنان فى معظم الاحيان!

يحكى أن رجلاً رأى ابليس فى المنام، فاندهش حين رآه جميلاً على عكس ما يصوره الرسامون. فسأله في ذلك فأجاب الملعون: " ماذا اصنع والقلم بيد أعدائى

لو كان ابليس سلطاناً من سلاطين هذه الدنيا لجعله الشعراء مثل يوسف الصديق جمالاً وبهاءً.

كيف يتمرن الشاعر:

يذكر الدكتور محي الدين الطريقة التى يتمرن بها الشاعر على نظم الشعر فى اول أمره. انه يبدأ بطرق الموضوعات التقليدية، فيتغزّل من غير غرام، ويتحمس من غير شجاعة، ويتكلف الشباب وهو طاعن فى السن، ويبكى الطلول وهو مقيم فى المدينة، ويصف الخمرة دون ان يذوقها، ويصطنع المجون وهو من اشد الناس تزمتاً ووقاراً....

كل ذلك فى نظر الدكتور تمرين وتدريب على نظم الشعر. ولست أدرى كيف يؤدى هذا التمرين إلي إنتاج آلة التصوير لدى الشاعر؟ أتراه يتدرب على الكذب فى أول الامر لكى يصدق اخيراً؟ الا يجوز ان نقول بأن الشاعر يبدأ حياته كذاباً وينتهى منها كذاباً!؟

انه على كل حال فنان. الفنان لا يحاسب على ما يفعل، اذ ان الفن يؤدى كما

يقول الدكتور محي الدين الي فناء الذات وانمحاء الشخصية. وعندئذ تستولي الشخصية الفنية على صاحبها استيلاء طاغياً لا حيلة معه ولا خلاص منه.

حين قرات هذا القول الذى جاء به الدكتور عن الفن ذكرت شاعراً من ابناء العلماء الأعلام حيث نظم مؤخراً قصيدة عصماء فى مدح احد السلاطين. فلما سئل فى ذلك اجاب: "بانه لم يملك نفسه حين رأى طلعة السلطان إلا ان يقول فى مدحه شعراً" . فلقد انسته طلعة السلطان كل تراثه الدينى ومثله العليا واصبح لا يعي من دنياه سوى حب السلطان والثناء عليه.

إنه مغمى عليه! كبروا في اذنه.

المقالة السادسة

بين اللفظ والمعنى

"الوردي يتحدث عن الشعر العربي بجملته فيصفه بأنه شعر يعتمد على الموسيقى اللفظية، وأن حظ المعاني منه جد قليل. وهذا كلام يسهل إطلاقه على من يريد إرسال الكلام إرسالا. ولكنى اسأل الوردي عن هذه الموسيقى التي دخلت الشعر العربي فصادفته خالياً او فقيراً الى المعاني. اساله من اين جاءت؟

امن مفرداته؟

ام من تراكيبه؟

أم من أوزانه؟ "

ويأخذ الدكتور محي الدين باستعراض الشعر العربي من حيث مفرداته وتراكيبه وأوزانه فيستنتج منها بأن الشعر العربي حافل بالمعاني، وانه لا يختلف في ذلك عن شعر اية أمة أخرى.

انها مشكلة:

لاستطيع ان اقف مع الدكتور محي الدين في هذا الجدل على صعيد واحد. فهو ينظر الى الأمر من زاوية تختلف عن الزاوية التي انظر منها اليه. وسوف لا نتفق على رأي مهما طال الجدل بيننا.

ان الدكتور محي الدين شاعر فحل، وقد قضى من عمره شطراً كبيراً في نظم الشعر وفي حفظه. وهو قادر على الإتيان بأمثلة عديدة في اي معنى يشاء. ويستطيع أن يتحدانى به حيث لا أملك تجاهه سوى الحوقلة والاستعاذة بالله.

ولكن المشكلة لا تنحصر في ضرب الامثلة او في استخلاص المعاني منها. فلقد جربنا العقل البشري فوجدناه قادراً على استخلاص اي معنى يشاء من اية عبارة تعجبه. وهو في نفس الوقت قادر على نفي اي معنى من اية عبارة لا يحبها.

قد يحب الانسان شيئا فينسب اليه كل صفة جميلة، ويكرهه فينسب اليه كل قبيح. وهو في ذلك يجري وراء عاطفته وذوقه الخاص. وقد صدق الشافعي حين قال:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   كما أن عين السخط تبدى المساويا

وحين نرى اختلاف النقاد في تقدير الشعراء نجد ذلك واضحاً فيهم. فمنهم من يصعد بأحد الشعراء الى عنان السماء، ومنهم من ينزل به الى اسفل درك. وكل واحد منهم موقن بصحة رأيه، واثق به. وتراه يتغنى بشعر صاحبه ويعده خير شعر أوحى به الجن الى الناس

رأى في الشعر العربي:

رأيي في الشعر العربي القديم انه يعنى باللفظ أكثر من عنايته بالمعنى. ولست اقصد من هذا أن الشعر خال من المعنى. فقد نعثر فيه على كثير من المعاني الرائعة، لاسيما في شعر المبدعين الكبار كالمتنبي والمعري ومهيار الديلمي. ولكن هذا الشعر الابداعي لايمثل جميع الشعر العربي. ومن الممكن القول بأن الشعر العربي القديم بوجه عام أقل حظاً في المعاني من اشعار الامم الاخرى.

ان المسألة نسبية اذن. ونحن لانستطيع ان نبتَّ فيها بالرجوع الى الامثلة وباستخلاص المعاني منها. الأولى بنا ان نرجع الى خصائص الشعر العربي فنقارنها بخصائص غيره من أشعار الامم الاخرى فإذا وجدنا في الشعر العربي من القيود اللفظية أكثر مما نجده في غيره جاز لنا أن نقول أن حظه في المعاني أقل من حظ غيره.

ظاهرة نفسية:

وهناك ظاهرة نفسية لها صلة بموضوعنا هذا. ومؤداها أن العقل البشري لا يستطيع أن يعنى بأمرين متناقضين في آن واحد الا نادرا. فهو لا بد أن يقلل من عنايته بأحدهما اذا أراد أن يركز اهتمامه في الأمر الآخر.

ومما يؤسف له ان القدماء لم يكونوا يعترفون بهذه الحقيقة، او لعلهم لا يفهمونها. فهم يعتقدون بأن العقل قادر على استيعاب جميع نواحي المعرفة وعلى التخصص فيها اذا أراد. فاذا عجز الانسان في ناحية من النواحي العقلية عنّفوه واتهموه بالبلادة او الكسل، فهو لو كان قد اجتهد وثابر لوصل الى كل ما يريد في زعمهم. وقد تبين الآن خطأ هذا الراى. يقول وليم جيمس: "العقل متحيز وجزئى بطبيعته. ولايكون ذا مقدرة وكفاية الا بتخيره ما ينتبه اليه، وبتركه ما عداه – بتضييقه وجهة نظره– والا توزعت قوته الضئيلة، وضلّ في تفكيره."

اللفظ والمعنى:

ويظهر مصداق هذا المفهوم الجديد في موضوع اللفظ والمعنى في الشعر. فاللفظ والمعنى متناقضان بطبيعتهما. والشاعر لا يستطيع ان يركز اهتمامه على التجويد في كليهما معاً. وكلما اشتدت عنايته باللفظ ضعفت عنايته بالمعنى قليلاً او كثيرا.

وارجو من الدكتور ان يعترف بصحة هذا المفهوم قبل أن أتمادى في مناقشته. أما اذا اراد ان ينكره فليس لى معه حيلة، ولا فائدة من الجدل معه اذن.

خصائص الشعر العربي:

اجتمعت في الشعر العربي خصائص ثلاث قلما نجدها مجتمعة في غيره. وهذه الخصائص بطبيعتها لفظية. وقد يصح ان نسميها قيوداً لفظية، وهي: (1)القافية، (2)الوزن، (3)الاعراب .

ونحن لاننكر وجود هذه القيود، بعضها او كلها، في أشعار الاعاجم. إنما هي ليست ثقيلة على منوال ما نجدها في الشعر العربي.

يعتقد الدكتور محى الدين ان الشعر العربي لا يختلف عن غيره من اشعار الامم الاخرى في سمو معانيه، ولعله بزّها في المعاني احيانا.

والذي اعتقده أن الشعر العربي لايستطيع ان يقف في مستوى غيره من حيث المعاني. إنه لا يخلو من المعانى طبعا كما ذكرنا ولكنه لا يستطيع ان يجري وراءها طليقاً كغيره. وهل في قدرة الشاعرالعربي ان يحلق في الخيال كالطير بينما هو مثقل باعباء الوزن والقافية والاعراب على ذلك النمط المعلوم..

قليلاً ما نجد شعراً من أشعار الاعاجم يحافظ بدقة على الوزن والاعراب معاً. ومن النادر ان نجد بينها شعراً يلتزم الاوزان المحدودة التي اكتشف الفراهيدي سرها في سوق "الصفارين".

اعجوبة القافية العربية:

اما القافية العربية فحدث عنها ولا حرج. انها يجب ان تكون على وتيرة واحدة منذ بداية القصيدة حتى نهايتها. وهي بالاضافة الى ذلك يجب ان تكون معربة. والاعراب في القافية داء عضال يعرفه الذين مارسوا نظم الشعر في اللغة.

ان الشاعر العربي مضطر أن يركز اهتمامه في القافية واعرابها قبل أن يبدا بنظم البيت. ولست اقول هذا جزافاً. فلقد كنت في بدأ شبابي شاعراً أو شويعراً، وعانيت من نظم الشعر بلاءاً لا يستهان به. ولا أزال أذكر كيف كنت اجمع القوافي من القواميس فاضعها في قائمة، ثم أبدأ بنظم القصيدة على أساسها. وكثيراً ماكنت احشر الألفاظ في البيت حشراً لكي اصل بها الى القافية المنشودة.

والمعروف عن القواميس العربية القديمة انها ترتب الكلمات على أساس الحرف الاخير منها، لا الاول كما تفعل القواميس الحديثة. والظنون انها فعلت ذلك لكي تساعد الشعراء على التقاط ما يرومون من القوافي.

ولعل هذا من الاسباب التي جعلت الملاحم نادرة في الشعر العربي.

فقلما نجد فيه قصيدة قصصية طويلة كالتي وجدناها عند هوميروس أو دانتي او الفردوس. فالشاعر العربي يصعب عليه ان ينظم الملحمة الطويلة، لأن المحافظة على سلامة الوزن والقافية والاعراب تنهكه وتكلفه شططاً. إنه يشعر بالتعب قبل ان يشعر به الشعراء الآخرون الذين تحرروا من هذه القيود كثيراً او قليلاً.

ولست أنكر مع هذا وجود شعراء من العرب قادرين على الإتيان بالمعاني الرائعة. ولكني اعتقد بأنهم لو كانوا اكثر تحررا من القيود اللفظية، لجاءت معانيهم أروع واكثر تنوعا وعددا.

تذمر الشعراء المحدثين:

تقول الآنسة نازك الملائكة في مقدمة ديوان لها عن ثقل القافية في الشعر العربي:

انها كانت دائما هي العائق، فما يكاد الشاعر ينفعل وتعتريه الحالة الشعرية، ويمسك القلم، فيكتب بضعة ابيات، حتى يبدا محصوله من القوافي يتقلص، فيروح يوزع ذهنه بين التعبير عن انفعاله، والتفكير في القافية، وسرعان ما تغيض الحالة الشعرية وتهمد فورتها، ويمضي الشاعر يصف الكلمات ويرص القوافي دون حسّ"

ويقول الاستاذ نزار قباني في مجلة الآداب: "كنت من أول القائلين بوجوب التحرر من القافية.. هذه العبودية الملحنة، التي تقول للبيت العربي: قف. فيقف، وتقطع خيوط الخيال العربي في روعة قفزته فيقع منقطع الأنفاس..."

ويعود الاستاذ نزار فيقول: "بأن القافية العربية بالرغم من عيوبها هذه، تراث جميل، وهي مرتبطة بسر النغم." وفي رايه اننا يجب أن نحتفظ بها او نتقبل عبوديتها كما نحتفظ بعقد الرباط في رقابنا، ذلك أن التحرر منها يحتاج الى اجيال...

الخلاصة:

خلاصة ماأريد ان اقول هي أن الشعر العربي القديم جميل في موسيقاه اللفظية، ولكنه في معانيه ضحل نسبياً. ولو ترجمنا بعض تراثنا الشعري الى لغة حديثة لما حصلنا منه الا على سواد الوجه!

انه يفقد بالترجمة موسيقاه، ولا يبقى منه سوى قليل من المعاني العجفاء. ومثل هذا يمكن ان نقول عن كثير من تراثنا الثقافي. فنحن قوم اشتهرنا منذ قديم الزمان بحسن البيان!